قراءة النص الأدبى
بردتا البوصيرى وشوقى نموذجاً

دكتور
عبد الوهاب برانية
مدرس بكلية اللغة العربية إيتاى البارود

(١)

مقدمة نقدية لابد منها :

إذا كان النقد الأدبى يعنى فهم الأدب وتفسيره وتقديره ، وذلك " بتقويم الأعمال الفنية والأدبية وتحليلها تحليلاً قائماً على أساس علمى" (١) فإنه بهذا المعنى يعد ذا أهمية قصوى بالنسبة للأديب والقارئ والأدب نفسه ، ولا يمكن الاستغناء عنه لكل واحد منهم بأى حال من الأحوال .

فالأديب : يحتاج النقد فى تفسير آثاره وتقويمها وتقديمها للقراء ، فالناقد يوجه الأديب إلى ما فيه إصلاح عمله ، وتهذيبه حتى يخرج فى صورة لائقة مقبولة .

والقارئ : يحتاج النقد لأنه يفسر النصوص الأدبية ويقدمها له فى صورة تامة ، كما أن الناقد يوجه القارئ كذلك إلى مواطن الحسن والقبح والجودة والرداءة فى النصوص الأدبية والأعمال الإبداعية ؛ إذ ربما أغلق الأمر على القارئ لنقص فى خبرته أو ثقافته واستيعابه ، وربما يسلك بعض المبدعين فى كتاباتهم مسلكا غامضا فيلوون الحقائق ويحمّلون النصوص ما لا تحتمل ، فيأتى دور الناقد ليبرز ذلك للقارئ ويكشف له عن مقاصد المبدع ويلفت نظره إلى ما غاب عنه ، وغمض عليه واستعصى على الفهم ، فيزيده بذلك خبرة فى كيفية التعامل مع الأثر الأدبى والحكم عليه وتقديره .

والأدب : نفسه فى حاجة إلى النقد ؛ لأن النقد يوجه الأدباء ويدفعهم إلى الرقى بالأدب والإجادة فيه، فيسعى كل أديب إلى تجويد فنه حتى يحظى بالقبول من القارئ والناقد على سواء ، فالفائدة تعود بالدرجة الأولى على الأدب نفسه ؛ لأن مراقبة المبدع للقارئ والناقد ووضعهما فى اعتباره عند الإنشاء يجعله أكثر دقة وبالتالى يجعل أدبه أحظى بالقبول عند القراء ، وأكثر شعبية وجمهوراً .

---

(١) معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب - د / مجدى وهبة وكامل المهندس ، مادة (نقد) مكتبة لبنان بيروت د. ت ٥١٤.

ولما كان النقد الأدبى أكبر مقوم من مقومات العمل الإبداعى ؛ لذا كـــان من المهم جداً عند دراسة النص الأدبى مراعاة عدة أمور :

١- ذكر الحقائق التاريخية التى تعد بمثابة الباعث على النص ؛ إذ من خـــلال ذلك يمكن الوقوف على الأثر أو الجو النفسى الذى تتضمنه القصيدة .

٢- عرض الأفكار التى اشتمل عليها النص وتحليلها تحليـــلاً أدبيـــاً ، حتـــى تتضح الرؤية للقارئ أو الدارس ، وتتكشف العاطفة من خـــلال أجـــزاء النص وعناصره .

٣- شرح بعض الصفات الأدبية والخلقية والنفسية التى انطوى عليها النـــص الأدبى ؛ لأنها مفردات أساسية فى العملية الإبداعية .

٤- مناقشة النص وقراءته قراءة نقدية تشمل عناصر العمـــل الأدبـــى التـــى تعارف عليها النقاد ، من الفكرة إلى العاطفة والخيال والصورة والموسيقى واللغة وغيرها .

٥- وضع النص فى ميزان نقدى ، ببيان ما له ومـــا عليـــه وأقـــوال النقـــاد ومواقفهم منه وما دار حول النص من مناقشات وما طـــرح حولـــه مـــن قضايا وأفكار .

فإذا كانت قراءة النص الأدبى مقرونة بغيره من النصوص بحيث تـــأخذ طابع الموازنة بين نصين ، فإن الأمر يحتاج إلى صبر وعزيمة ؛ لأنـــه أشـــد صعوبة وأكثر خطورة ؛ إذ الوقوف أمام النصوص لاستجلاء أسرارها، والنفوذ إلى أعماقها لاستخراج كنوزها ودررها أمر لا يتيسر لكل قارئ أو دارس ، ولا يستطيعه إلا شخص واسع الإطلاع غزير الثقافة ، كثير القراءة للنصوص دائـــم الوقوف على الأعمال الإبداعية ، وما دار حولها من رؤى نقدية مختلفة .

وتجدر الإشارة إلى أن مرحلة الموازنة والتحليل للنصوص الأدبية تقـــوم أو تنهض على عدة عناصر أساسية تكون هى المحاور الخاصة التـــى يعتمـــد

عليها الناقد فى قراءته ، ولعل أهم هذه المحاور هـــى : العاطفـــة والخيـــال ، والصورة والذوق اللغوى الذى يقاس به جمال النـــص وبلاغتـــه وحســـنه ، أو رداءته وقبحه .

فالعاطفة : هى حالة من الانفعال تصيب الأديب عند إحساسه بالتجـــاوب النفسى مع باعث من بواعث الألم أو الفرح ، وترجمة هذا الانفعال بلغـــة الأدب إلى تجربة فنية معبرة عن الآلام أو الآمال ، فى أسلوب رائع مشوّق ، وصـــدق فنى يعكس هذا الفوران العاطفى عند الأديب .

ويرى " د . عبد الحميد المسلوت " أن العاطفة هى انفعال نفس الأديـــب بالألم المر حين يلقى إليه نبأ محزن ، أو بالسرور والبهجة حين تَدْخُـــلُ علـــى نفسه أخبار مبهجة ، هذه العاطفة يثيرها الرضى والســـخط والألـــم والأمـــل ، فتحتشد النفس بالمعانى وتجيش بالخواطر ... " (١) .

فالعاطفة هى التى تكسب النص الأدبى صفة الخلود ، وتمنحـــه مصـــدر البقاء دون غيره من النصوص العلمية والصحافية ؛ لذا كانت من أهم عنـــاصر النص الأدبى التى تميزه عن غيره من النصوص العلمية والأخبار العادية بمـــا تظهر من شخصية الأديب ، وتصور من ذوقه ومزاجه وفكره وروحه .

وللعاطفة مقاييس منها : الصدق ، والقوة ، والتنوع ، و الاستمرار فـــى العمل الأدبى بحيث تتحقق فى كل أجزائه وتبقى وتستمر بالدرجة نفســـها مـــن الصدق والقوة والسمو .

فحين تتحقق هذه المقاييس تكون العاطفة هى القوة التى تكمن فى النـــص الأدبى وتبعث فيه الروح ، أما فى غير ذلك من النصوص فإنها تفتقد تلك القـوة المهمة التى تسرى فى أوصال النص وتحمـــل عنـــاصر بقائـــه واســـتمراره ، ونضرب مثلاً لذلك بمرثية أبى العلاء المعرى التى مطلعها :

---

(١) محاضرات فى أدب العصر الجاهلى – د . عبد الحميد المسلوت – القاهرة – د.ت ص ٤٦ .

غيرُ مُجْدٍ فى ملتـــى واعتقــادى
نــوحُ بــاكٍ ولا ترنــم شـــادى

حيث تثير هذه المرثية فى نفس القارئ عاطفة الأسى والحزن ، وتنتقـــل إليه إحساس الشاعر ، وتأثره الذى تشبعت به نفسه ومزاجه وروحه وتفكـيره ، ونحو ذلك من عناصر شخصيته ، ثم يتركها إلى أن تدعوه الدواعى لإثارة هـذه العاطفة فى نفسه بوفاة صديقه مثلاً ، فيعود إلى مرثية أبى العلاء مرة أخـــرى ليظفر بهذه اللذة النفسية ، وهكذا ...

فالذى دعا المتلقى إلى العودة مرة ثانية إلى النص الأدبـــى بعــد طــول فراق له ، ما يحتوى عليه من عاطفة قوية صادقة تعبر عن شخصية الأديـــب بوضوح ، وتعكس أثراً نفسياً احتواه فى ظل التجربة التى مر بها .

وإذا كانت العاطفة تعطى الأثر الأدبى روحه وتهبه نفحة الخلود ؛ فـــإن الفكرة هى التى تمسك بزمام العمل الفنى ، فلا يجمح بعيداً فى انسيابية ليس لها حدود ، بمعنى أن الفكرة هى التى توضح معالم الأثر الفنى بما فيه من خواطـر وحقائق وأفكار ، يتلاحم بعضها مع بعض لإعطاء العمل الفنى صورتـــه ، أو إطاره الذى ينبغى أن يقوم وينهض عليه ، فأى عمل فنى لا يحيا دون الاعتمـاد على فكرة تحلق بين جوانحه وتنطوى عليها عناصره ، وقد وصف " الدكتـــور محمد عبد المنعم خفاجى " كل أدب تتخلف عنـــه الفكرة بأنه أدب ميت خـــامل ضعيف ([1]) .

وإذا كانت الفكرة عنصراً أساسياً من عناصر العمل الفنى ، فهى - لاشك - فى أمسّ الحاجة إلى خيال يشرق فى جوانبها ؛ إذ بدون الخيـــال لا يلتفـت إليها ، وتبدو وكأنها شئ لا قيمة له ، " فالخيال هو الذى يضيف إلـــى الفكـــرة ظلالاً وألواناً تدنى إلى النفس قبولها وتشيع الاطمئنان إليها " ([2]) .

([1]) انظر النقد العربى الحديث ومذاهبه - د / خفاجى ص ٤٦ .
([2]) محاضرات فى الأدب الجاهلى - د / المسلوت ص ٥٩ .

ولتفسير ذلك أسوق هذا المثال : عندما يقول الأديب معبراً عن فقد صديق عزيز لديه : إنى حزين لموت صديقى ، فإن ذلك لا يترك أثراً فى النفس ، ولا يثير انفعالاً بها ، ولكن هذا الأثر وتلك الإثارة نحسهما بقوة فى قول " الشيخ عبد العزيز البشرى " فى رثاء " حافظ إبراهيم نثراً " (١) : " إننى ما برحت مقروح الكبد لفقده ، ما ترقأ لى عليه دمعة ، ولا تبرد لى كلما ذكرته لوعة " ، أو قوله (٢) : " هذه شعبة من قلبى قد انخلعت لموتك ، ولعلها دفنت معك ، وما لها لا تفعل وقد كنتَ بعضى وكنتُ بعضَك فإذا أنا بكيتك فإنما يبكى بعضى على بعضى معى " .

إن الذى عمق الفكرة لدى المتلقى فى كلام البشرى عن حافظ هو عنصر الخيال المحلق الذى رسم هذه اللوحات المعبرة عن المرثى .

فالخيال هو تلك القوة النفسية التى ترسم المشاهد والأحداث والأفكار وتصورها تصويراً رائعاً ، محدثاً أعمق الأثر فى نفس القارئ ، ولذا كان الخيال من أهم العناصر الفنية فى تقويم العمل الأدبى والحكم عليه .

وتتضح أهمية الخيال فى إبراز الفكرة وإثارة المشاعر وإلهاب العواطف فى قول المتنبى مادحاً :

طلبتَهُمو على الأمواه حتى تَخَوَّف أن تفتشه السحاب

يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب

فالشاعر يكبر همة ممدوحه وسطوته وهيبته ، وقد امتلأت نفسه بالإجلال نحوه ، فأراد أن ينقل مشاعره تلك إلى السامعين فاستخدم الألفاظ القوية الضخمة التى تلائم العظمة والقوة والسطوة والسيطرة والإحكام واستعان فى ذلك بالخيال الذى منحه صوراً طريفة تبعث فى النفس الإحساس بهيبة الممدوح

---

(١) السياسة الأسبوعية عدد ٢ سبتمبر ١٩٣٢م .

(٢) قطوف للبشرى دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٧م ٢/٧٤ .

وعظمته ، فصور طلبه للأعداء وتتبعه لهم فى كل مكان بدقة شـــديدة ، حتـــى ليخشى السحاب أن يفتشه للبحث عنهم ، كما صور الممدوح وهو يمشى بيـــن جانبى جيشه الذى يهتز قوة وبأساً كالعقاب (وهو طائر من الكواســـر) الـــذى يهز جناحيه باعتبارها مصدر قوة له .

فالمعنى الذى صوره الشاعر هنا كان من الممكن - إذا لم يكن الشـــاعر على هذه الدرجة الفائقة فى استخدام الخيال وتوظيفه - أن يأتى فـــى إطـــار لا يلفت إليه الأنظار ، ولا يستوقف القارئ لحظة ، ولكنه اكتسب قوتـــه وجمالـــه وطرافته أيضاً من هذا الأسلوب الفنى المعتمد على إخضاع الفكـــرة لعنصـــر الخيال ، مع التأكيد على استخدام لغة قوية وألفاظ مناسبة للسياق .

والخيال نوعان : بسيط فى صورة واحدة وكلـــى يجمـــع عـــدة صـــور متشابكة ، تكوّن وحدة فنية ، وأدواته فى النوع الأول : الاســـتعارة والتشـــبيه المفردان ، وفى النوع الثانى يبدأ من التمثيل إلى القصة أو الملحمة ، فليســـتا إلا من قبيل الخيال الكلى بشعرهما أو نثرهما " (١) .

فالمراد بالخيال البسيط : ذلك الـــذى يعتمد على صـــورة واحـــدة فـــى نسجه ، أو ذلك الخيال الساذج الذى يحمل بعض الرتوش الفنية التى يضيفـــها الشاعر إلى الصورة فى سذاجة (٢) .

والمراد بالخيال الكلى : ما يسمى بالخيال المبتكر أو الابتكـــارى ، وإن كان فى هذه التسمية شئ من التحفظ ، فكأن من يأتى بخيال مفرد لم يبتكر شيئاً.

ويمكن أن نلمس الخيال بنوعيه فى قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى فـــى أبى الهول والتى مطلعها :

---

(١) الأسس الفنية للإبداع الأدبى - د / عبد العزيز شرف ص ٣٨ - دار الجيل بيروت - ط١ - سنة ١٩٩٣م .

(٢) نفسه ص ٣٨ ، ٣٩ .

أبا الهول طال عليــك العُصُــر وبُلِّغْتَ فى الأرض أقصـــى العُمُــرْ (١)

فنرى كيف عبر شوقى فيها تعبيراً يمزج فيه الإعجــاب بــالفن البنــائى بالتاريخ الوطنى ، ويكوّن حــول الصــورة الحقيقيــة موضوعــات ، ويــأتى بالتشبيهات والاستعارات ، وغير ذلك من أدوات الخيال ، فيرسم إطــاراً فيــه الحقيقة ، وفيه الرتوش ، وفيه كما يقولون : الإبداع والابتكار.

وتجدر الإشارة إلى أن الأديب باستخدام عنصر الخيال فى العمل الأدبــى لا يخترع شيئاً غير موجود ، ولكنه ينظر إلى وقائع الأشياء فيحسنها ويجملها ، أو يقبحها بخياله ، ويكسوها بشاعريته ، ويلبسها من عنده ثوبها الفنى الجميل ، ولكنه لايوجد الأشياء من عدم ، ولا يخلقها من لا شئ .

ومن لوازم النص الأدبى كذلك : الصورة الأدبية ؛ إذ هــى مــن أهــم الوسائل التى يحاول الأديب بها نقل فكرتــه وعاطفتــه معــاً إلــى قرائــه أو سامعيه (٢) .

والصورة الأدبية هى الإدراك الحسى للأشياء كــإدراك ألــوان الأشــياء وأشكالها وأحجامها وأبعادها وأوضاعها بوساطة البصر ، وإدراك الأصــوات والنغمات بالسمع ، وإدراك الطعوم بالذوق ، والروائح بالشم ، وملمس الأشــياء باللمس ، أى أن الإدراك الحسى يترتب عليه إدراك المرئيــات والمســموعات والمذوقات والمشمومات والملموسات بوساطة الحواس الخمس الظاهرة ، وهــى العين ، والأذن ، واللسان ، والأنف ، والجلد (٣) .

فالإدراك الحسى ذو أثر كبير فى العمل الأدبى ، فإذا كان قوياً واضحــاً استطاع المنشئ أو الأديب أن يصف ما يحس وصفاً دقيقاً مطابقاً للواقع .

---

(١) الشوقيات أحمد شوقى ١٣٢/١ – ط / المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٧٩م .

(٢) أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب ص ٢٤٦ – ط٤ – مكتبة النهضة المصرية د.ت .

(٣) دراسات فى علم النفس الأدبى – حامد عبد القادر ص ٣١ – ط/ لجنة البيــان العربــى – المطبعة النموذجية سنة ١٩٤٩م .

وقد اشترط بعض النقاد لجمال الصورة فى العمل الأدبـــى ، ألا تكــون مستنفرة ، بحيث تبدو وحدتها متماسكة مترابطة ، تنمو وتتجه بالقصيدة اتجاهــاً موحداً فإذا تضاربت تضارب اتجاهها ، والمنطق الشعرى يخلق كــأى منطــق آخر نظاماً ونسقاً ، وقد نعجب بصورة مفردة فإذا نحن أرجعناها إلى ســـياقها بدت غريبة وأقل جمالاً (١) .

ولاشك فى أن من لوازم وحدة الصورة فى العمل الأدبى - التى هى مــن أسباب جماله - أن تتوافر فيها وحدة النسج ، بمعنـــى اســتواء لغــة القصيــدة واطرادها على صفة واحدة ، فإذا وُجِد فى لغتها تفاوت وفى نسجها اضطراب ، فإن ذلك يؤثر على قيمتها الفنية ، وعلى جمالها الشكلى .

فالشاعر المجيد هو الذى يوفق بين أنماط التعبير من الألفاظ والتراكيب ، وبين ما يعرض له من مواقف وأغراض شعرية ؛ إذ لا يليق به مثلاً أن يــأتى فى الحماسة بلغة الغزل من رقة وعذوبة وتلطف ، أو يأتى فى المــدح بألفــاظ الهجاء والإقذاع والذم والتنفير والتقبيح ، ولا عكس ذلك كله .

وفى النقد الحديث يرى " د . محمد مندور " (٢) أن الأديب الحق لا يقف فى تحصيله اللغة على معرفة قواعد النحو والصرف ، وإنما يتعدى ذلك إلـــى معرفة اللغة معرفة حس وعاطفة ، بمعنى أن يدرك أرواح الألفاظ لا أشباحها ، وما أرواحها إلا الإيحاءات والظلال ، وأما أشباحها فمعانيها المعجمية الباردة ، وهذا الضرب من معرفة اللغة هو من المواهب التى لا يرزقها إلا القليل .

فاللغة خاصية من أهم خصائص الشعر ، يحرص فيها الشـــاعر علـــى اختيار كلماته خالية من التصنع الممقوت ، الذى لا يلائم فكرته ولا عواطفــه ، ويحرص - أيضاً - على استخدام عناصر اللغــة البيانيــة المكونــة للصــورة الشعرية ، حتى يظفر بالتعبير الدقيق المناسب ، ليوصل ما فى ذهنه إلى القارئ أو المتلقى بوجه عام .

---

(١) الصورة الأدبية - د / مصطفى ناصف ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ - ط / مكتبة مصر د. ت .
(٢) راجع : فى الأدب والنقد - د/ محمد مندور ص ١٨ - ط٣ - القاهرة - سنة ١٩٥٦م.

(٢)

موازنات نقدية :

آثرت قبل الشروع فى تناول قصيدتى " البوصيرى وشوقى " فى مـــدح النبى ﷺ - بالعرض والتحليل والموازنة والنقد – أن أنتقى عـــدة مقطوعـــات شعرية وقطع نثرية فى القديم والحديث ثم أقوم بالموازنة بينها مراعياً العنـاصر النقدية التى مهدت بها فى مقدمة الدراسة ، من حيث الفكرة والعاطفة والخيـــال والصورة والتعبير ، وهذه الموازنات ضرورة للقارئ والباحث على ســـواء ، حيث تعتبر بمثابة الكشاف الذى يهتدى به ويسير على ضوئه فـــى الموازنـــات التى قد يتعرض لها أو يحاول صنعها فى الآثار المختلفة .

وإليك بعض هذه الموازنات :

١- بين " المتنبى " و " عبد الحميد الكاتب " فى الشكوى من الزمان والتـــبرم بالحياة : يقول المتنبى (١) شاكياً :

رماتنى الدهر بـــالأرزاء حتـــى ... فؤادى فـــى غشـــاء مـــن نبـــال

فصـــرت إذا أصـــابتنى ســـهام ... تكسرت النصال علـــى النصـــال

وهـــان فمـــا أبـــالى بالرزايـــا ... لأنى مـــا انتفعـــت بـــأن أبـــالى

وفى المعنى نفسه يقول عبد الحميد الكاتب (٢) نثراً :

---

(١) المتنبى : هو أبو الطيب أحمد بن الحسين ، كوفى المنشأ ، خرج من الكوفة وعمره بضـــع عشرة سنة يطلب اللغة فى بادية بنى كلب فالتف عليه قبائلها وشاع ذكره بينهم ، وبلغ أهل الشام أنه تنبأ بينهم فخرج إليه عامل حمص وأسره وسجنه ، ثم أُطلق ، ومدح سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، فقربه إليه وأغدق عليه وعلمه الفروسية ثم حدثـــت بينـــهما جفـــوة فتركه إلى مصر ، ومدح أميرها كافوراً الإخشيدى ثم هرب من مصر وهجاه ، ثم ذهـــب إلى فارس ماراً ببغداد فمدح عضد الدولة وابن العميد فأغدقا عليه ثم رجع قاصداً الكوفـــة فقتله الأعراب سنة ٣٥٤هـــ قرب بغداد .

(٢) هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، نشأ بالأنبار بليغاً حصيفاً ، وصاحب مروان بن محمـــد آخر خلفاء بنى أمية أيام ولايته وخلافته حتى قتلاً بعد خروج العباســـيين عليـــهما ســـنة ١٣٢هـــ ، ويعد عبد الحميد من أعلام البلاغة العربية وشيخ كتاب الرسائل عامة .

أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكـــاره والســـرور ، فمـــن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشـــكاها مستزيداً لها وكانت قد أذاقتنا أفاويق (١) استحلبناها ثـــم جمحـــت بنـــا نـــافرة ورمحتنا (٢) مولية فملح عذبها وخشن ليِّنهُا ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنـــا عن الإخوان"(٣) .

فالفكرة فى شكوى المتبنى هى : العنصر العقلى فى شعره ، متمثلة فـــى قسوة الدهر عليه ، وعلى غيره ، غير أنه سلط الفكرة على نفسه أولاً وكثفـــها بشكل يدعو إلى تأثر القارئ وتعاطفه مع الشاعر .

والعاطفة : عاطفة إنسان ساخط على الحياة ضائقة بها نفسه ، متبرم بـــها لكثرة ما رمته من المصائب وأذاقته من الأهوال حتى يئس من تحقيق الراحة ، إنه ساخط على الدنيا لأنه لم يحقق فيها آماله ، ولم يذق فيـــها طعـــم الراحـــة والسعادة ، فالمصائب تلاحقه والأرزاء تتناوشه حتى ضعفت قوتـــه وخـــارت عزيمته ، وهان الأمر عليه ولحقه اليأس وسيطر عليه الاستسلام ، فمـــا عـــاد يبالى بما يحدث له ، لأنه جرب المعاناة ولم يتحقق له نفع ، فقد رضـــى بمـــا أصابه وقنع به ، وهو يثير فى قارئه عاطفة مماثلة أو مشابهة لما أحســـه هـــو وعاشه فى حياته ، وقد يثير شفقة القارئ عليه ومشاركته له فى الحس والشعور فيتمنى أن لو قدر على تخفيف أعبائه والحد من معاناته ، ومـــن القـــراء مـــن يحس بتطابق التجربة عليه ، وكأن الشاعر يقصد كل مرزوء ، ويعـــبر عـــن معاناة الآخرين ، وهى صورة من معاناته هو ، فالتجربة عامة ، لأن العاطفـــة

---

(١) أفاويق : جمع أفواق ومفرده : فيقة وهو : اللبن الذى يجتمع بين الحلبتيـــن . (المعجـــم الوجيز) .

(٢) رمحتنا : رفستنا أو طعنتنا بما يشبه الرمح .

(٣) انظر : سرح العيون لابن نباتة ص ١٦٥ دار الكتب المصرية .

فيها صادقة وواقعية إلى حد كبير ، حينئذ يتطابق الأثر النفسى بين القارئ والشاعر .

والخيال فى نص المتنبى خيال قوى مؤثر ، وذلك لأن الشاعر لما ألمت به الخطوب وصوب الدهر إليه سهامه الفتاكة فأحدث فيه شروخاً بينة جعلته يسخط على الدنيا كلها ويستسلم لما أصابه وألمَّ به ، فلم يعد يحفل أو يبالى بتناوب الأحداث عليه ، فأراد الشاعر من أجل ذلك كله أن يثير فى القارئ عاطفة مماثلة لما يحس هو به ، فيشاركه فى السخط على الدنيا أو يثير فيه عاطفة الإشفاق عليه ، ولما كانت الألفاظ بمعناها اللغوى أو المعجمى لا تؤدى هذه الوظيفة ولا تساعد الشاعر على تحقيق هذا الغرض فقد عمد إلى طريقة تجسيم المعانى حيث حول المعنويات إلى ماديات ، فجعل الزمن إنساناً أو كائناً يدبر له المكائد ، وجعل المصائب فى صورة نبال يرميه بها هذا الإنسان ، فقد أخذ كل عناصره الخيالية من الطبيعة مستعيناً بالتشبيه والاستعارة فى نسج خيوط هذه الصورة الخيالية .

وأما لغة الشاعر : أو القالب الذى صب فيه هذه المعانى ، فقد اختار أنسب الكلمات التى توافق عاطفته ، فكلها كلمات توحى بالسخط على الدنيا والتبرم بالحياة والاستسلام للخطوب والأرزاء ، ومنها كلمات : (رمانى – الدهر – الأرزاء – نبال – أصابتنى – سهام – تكسرت – النصال – وهان فما أبالى – الرزايا) وهى كلها ألفاظ تحمل معانى الضيق بالحياة والسخط على الدنيا فجاءت موافقة لعاطفة الشاعر مؤدية للغرض الذى استهدفه من شعره .

ولقد وفق الشاعر فى اختيار الوزن الشعرى الذى يناسب تبرمه بالحياة وثورته على مصائبها المتوالية ثم استسلامه وعدم مبالاته لما توجهه إليه من ضربات ، فجاءت أبياته على وزن (بحر الوافر) مفاعلتن مفاعلتن فعولن ، ولاشك فى أن ما يحمله هذا البحر من توالى عدة متحركات فى كل تفعيلة قد

يهيئ للشاعر فرصة للتعبير عن ثورته والتنفيس عن براكين الغضب والرفض التى تمور فى وجدانه ، فهذا الوزن قد ساعد الشاعر بما فيه من موسيقى غاضبة على تحقق هذه الثورة وإزكاء روح الانفعال .

وفى قطعة " **عبد الحميد** " : يعبر الكاتب عن حقائق صادقة حين يطرح فكرته ، حيث عبر عن مرحلتين فى حياته : مرحلة النعيم والسرور فى ظلال الخليفة " مروان بن محمد " آخر خلفاء بنى أمية يوم كان عبد الحميد كاتب ديوانه ومن خواصه المقربين منه ،ومرحلة البؤس والشقاء يوم ثار العباسيون على الخليفة وانتصروا عليه وطاردوه وشردوا معه خاصته ، هنا أحس " عبد الحميد الكاتب " مرارة الحياة وقسوتها ؛ لأنه ذاق حلاوتها من قبل ، واليوم يتجرع كأس المرارة ولا يكاد يسيغه .

وعاطفة الكاتب : قوية مؤثرة وصادقة ، لأنه يشعر بالحزن والأسى لفراق أيام الهناء والسعادة ، فقد كان يعيش فى عز ونعيم مقيم ، ثم ارتحل النعيم وفارقه العز ، ولبس ثوب الذل والمهانة وصار طريداً شريداً ، معرضاً للأسر أو القتل ، فمن خلال رسالته هذه يبرز آثار هذه التقلبات فى حياته على نفسه وعواطفه ، ويحاول مع ذلك أن ينقل هذا الأثر النفسى إلى مشاعر قارئه ليشاركه عاطفته .

والخيال فى رسالة عبد الحميد الكاتب ثرى ؛ ذلك أنه لما أراد نقل عاطفته إلى القارئ وجد أن الألفاظ لا تسعفه فى بث تلك العاطفة وإثارة المتلقى بما حدث له ، ومن هنا لجأ إلى الخيال ليجعل آلامه فى صورة بارزة ، ويصورها فى إطار يقربها إلى الأذهان ، ويهيئ المشاعر للانفعال بها – فالدنيا مثل وحش كاسر إذا عضت بنابها إنساناً تركته فى حالة من البؤس والعذاب والمعاناة لا مثيل لها ، ولم يكتف الكاتب بهذه الصورة بل أضاف إليها صورة أخرى تزيدها وضوحاً ، حيث رسم الدنيا فى صورة ناقة كانت وطيئة المركب

أليفة وفيَّة ثم تحولت إلى ناقة جموح نافرة لا يقدر على سياستها أحد ، وجعل أيام الهناء التى عاشها وتمتع بها فى صورة لبن سائغ للشاربين ثم سرعان ما انقطع وخلف وراءه ظمأ لا رواء منه .

وتعبيرات عبد الحميد دقيقة موفقة غاية التوفيق ، حيث اختار الكاتب لأفكاره وعاطفته وخياله ألفاظاً تتناسب مع مقاييس كل عنصر منها وتؤدى إلى إقناع القارئ بمضمونها أو بما يحاول الكاتب أن يتركه فيه من أثر .

فألفاظه توحى بالمعنى الذى أراد ، وتنقل التجربة بصدق ، وتساعد على تصوير ما فى نفسه من حسرة وألم ، فاختار للتعبير عن حياته فى تينك الفترتين : (السعادة والشقاء) ألفاظاً تحمل معنى هذه وتلك ، واستخدم أسلوب المطابقة بين المعانى لإيضاح الصورة فيقول مثلاً : (ملح عذبها وخشن لينُها) فقد صارت الحياة العذبة المستساغة ملحاً أجاجاً تمجه النفس ولا تقدر على تذوقه ، والعيش اللين الوثير تحول إلى خشن حريش . بمثل هذه المطابقة الدقيقة يحكم للكاتب بالبراعة والتفوق حيث استكملت رسالته كل عناصر العمل الفنى التى توصله إلى الجودة .

٢- فى وصف الفجر بين الشاعرين : " إبراهيم ناجى " و " على محمود طه "

" الملاح التائه " : يقول ناجى (١) :

يطلع الفجر مرهقاً شاحب النو ر عليه الكلال والإعياء

وبنفسى دبَّ المساء وحل الليـ ل من قبل أن يحين المساء

---

(١) إبراهيم ناجى : شاعر مصرى حديث ، ولد فى ١٨٩٨/١٢/٣١م وتلقى تعليمه فى المدارس المصرية حتى التحق بكلية الطب ، وبعد تخرجه فيها عمل طبيباً ، وتغلب عليه الجانب الإنسانى فى عمله ، وبرع فى كتابة الشعر وله عدة دواوين منها : ليالى القاهرة، ووراء الغمام ، والطائر الجريح ، ثم (ديوان ناجى) وتوفى إبراهيم ناجى فى ٢٤ مارس سنة ١٩٥٣م مخلفاً وراءه ثروة شعرية هائلة تذكره بها الأجيال المتتالية .

ويقول فى الغرض نفسه على محمود طه (١) :

أقبل الفجر فى شفوف رقاق ... يتهادى فى منظر خلاب

حلل من وشائج النور زهر ... يتماوجن فى حواشى السحاب

وإذا الشاطئ الضحوك تغنى ... حوله الطير بالأغانى العذاب

ونسيم الصباح يعبث بالغا ... ب ويثنى ذوائب الأعشاب

فالفكرة فى المقطوعتين توحى بمعنى مختلف فى كل منهما عن الأخرى ، فإبراهيم ناجى صور الفجر حين يطلع على الدنيا كما لو كان إنساناً متعباً شاحب الوجه قد أصابه الإعياء ثم صور نفسه الحزينة الكئيبة وقد حل بها الظلام قبل أن يسدل الليل أستاره على الدنيا ، ثم جاء الليل فاختلط ظلامه بظلام نفسه الحزينة .

أما " على محمود طه " فقد صور الفجر على خلاف ذلك ، فإذا كان " ناجى " قد رسم له صورة قاتمة كئيبة ، فإن الملاح التائه قد صوره بصورة ضاحكة مستبشرة تبعث فى النفس التفاؤل وتبث الأمل وتجدد الحيوية والنشاط ، فالفجر يقبل فى ثياب رقاق ويدخل الدنيا متمايلاً فى هدوء ، فيستقبله الشاطئ مبتسماً حين يراه موشحاً بأشعته الهادئة ونوره الوقور .

ثم أبرز الشاعر انعكاس هذه اللوحة الجميلة على سائر الكائنات الحية ، فالأمر – إذن – غير قاصر على الآدميين ، بل كل الكائنات تحس بالبهجة وتشعر بالفرحة وتستقبل هذا النور الهادئ بالبشرى ، وضرب مثلاً بالطيور فى أعشاشها فهى أول من يستقبل هذا النور ويرقب مجيئه ، لأنه بداية انطلاقها من

---

(١) على محمود طه : هو الشاعر المهندس على محمود طه ، اشتهر بلقب الملاح التائه ، ولد بالمنصورة سنة ١٩٠٢م وانتقل إلى القاهرة ، حيث نشر بعض أشعاره فى مجلة أبولو وتوفى سنة ١٩٤٩م .

أوكارها ، والأغصان والأعشاب تهتز طرباً للقائه ، لأنه يأتى بالنسمات الهادئة التى تلاطف الطبيعة وتلثم صفحتها الخضراء .

وعاطفة **إبراهيم ناجى** فى البيتين حزينة كئيبة تعكس ما تحتـــوى عليـــه نفس الشاعر من رؤية سوداوية للدنيا ، فالشاعر لا يرى إلا الظلام الذى حـــل بنفسه قبل أوانه ، ولا يسمح لبصيص من النور أن يتسرب إليه ، وما ذلـــك إلا نتيجة للمآسى التى لحقت به فى حياته فلونتها بهذا اللون القائم وجللتـــها بـــهذا الرداء المظلم حتى انعكس ذلك على نفسه التى تغنت بالألم ودغدغت الخطـــوب والمحن ، فصبغتها بروح اليأس والحزن .

ولكن عاطفة " على محمود طه " مرحة مجللة بهالات من النور والجمال والإشراق ، ترى ما فى الكون من جمال وتعمى عن رؤية القبح فيه ، ومن هنا يمكن أن نقول : إن كل واحد من الشاعرين صادق فى عاطفتـــه ، لأنـــهما لا يفتعلان هذه العاطفة ، بل يعبر كل منهما عما يحسه ومـــا يمـــور فـــى نفســـه ووجدانه ، وعن رؤيته للحياة ، وطبعى أن ينعكس ذلك على مظاهر الطبيعـــة ، لأن كل شاعر يصبغ الحياة بريشته التى تناسب وجدانه ومزاجه .

وأما الصور والأخيلة : فنرى أن كل واحد من الشاعرين قد أتى بالصور المجازية واستعان بالتشبيه والاستعارة لتوضيح المعنى الذى أراده .

فإبراهيم ناجى مزج بين الليل والفجر مع أن الليل حين يـــأذن بـــالرحيل ويلملم أطراف ثيابه ويطوى أوراقه يكون ذلك إيذاناً بفجر جديد تشرق به الدنيـــا وتسعد به الخلائق ، لكن الشاعر " ناجى " لم يجد فى نفسه الحزينة مـــا يمـــيز الليل عن النهار ، فالمساء يحل قبل أوانه ويأتى الليل ليجد نفسه فى ظلام الحزن فيزيد الصورة تعتيماً .

والشاعر " على محمود طه " يصور الشاطئ حين قدوم الفجـــر بإنســـان يضحك من المنظر الخلاب ، والطيور تتغنى بالأغنيات العذاب ، والأغصـــان تهتز طرباً أو تتراقص فرحاً بقدوم هذا الوافد الجديد .

وإذا كان الشاعر " على طه " قد سيطر عليه الشعور بالفرحـــة ومتعـــة الإقبال على الحياة واستقبالها مع طلعة الفجر استقبالاً حسناً بالطرب والبشـــرى فإن الشاعر " إبراهيم ناجى " قد سيطر عليه الشعور بالتعب والإرهاق ، ولـــذا رأينا نفسه مضطربه حزينة بائسة وقد انعكس كل شعور على شعر صاحبـــه ، فإبراهيم ناجى صور الفجر حين يقدم بإنسان مريض قد أصابه الإعيـــاء علـــى حين نرى " على طه " يصور الفجر بفتاة عليها ثياب شفافة رقيقة تتمايل قادمـــة فى هدوء وجمال ، ويا بعد ما بين الصورتين !

والأسلوب عند الشاعرين مختلف ، حيث جاء كل منهما بألفاظ تناســـب حالته الشعورية ، فناجى أراد التعبير عن تشاؤمه ونظرته الضيقة لصورة الفجر فاختار الألفاظ التى توحى بذلك مثل : (مرهقاً – شاحب – الكلال – الإعياء) كما لا يخفى ما فى كلمة (دبٌ) من أثر فى إبراز تسلل الحـــزن إلـــى نفـــس الشاعر ، وكذلك فعل " على طه " غير أنه اختار ألفاظاً على النقيض من ذلك . فألفاظه تعبر عن البهجة والمرح والسرور مثل قوله : (وشائج – يتمـــاوجن – الضحوك – الأغانى العذاب – نسيـــم الصباح) فجاء التعبير صادقاً موافقاً لما يحس به الشاعر من عواطف البهجة والفرح والطرب للحياة .

٣- بين شوقى والكميت :

قال الكميت (١) معبراً عن رأيه فى حكم الأمويين :

فقد طال هذا النوم واستخرج الكـــرى مساوئهم لو كـــان ذا الميـــل يعـــدل

وعُطلّـــت الأحكـــام حتـــــى كأننـــا علـــى ملـــة غـــير التـــى نتنحـــل

---

(١) هو الكميت بن زيد ، كان شاعراً خطيباً ، نشأ فى الكوفة وتأدب على علمائها ، وأخذ عـن الأعراب وعالج الشعر حتى نبه شأنه ، واتصل بـــالولاة والهاشـــميين يمدحـــهم وينـــال عطاياهم ، وقد عانى كثيراً من تشيعه لآل البيت وتوفى سنة ١٢٦هـــ . راجع ترجمته فـــى الأغانى للأصفهانى ج١٨ وخزانة الأدب ج١ .

كـــلام النبييـــــن الـــــهداة كلامنـــــا وأفعـــال أهـــل الجاهليـــــة نفعـــل
فتلك ملوك السوء قـــد طـــال حكمـــهم فحتَّـــام حتَّـــام العنـــاء المطـــــول ؟

وقال شوقى (١) واصفاً ما كان بمصر من انقسام وتناحر بين الأحزاب :

إلام الخلـــــفُ بينكمـــــو إلا مـــــا وهذى الضجةُ الكـــبرى علامـــا ؟
وفيـــم يكيـــد بعضكمـــــو لبعـــــض وتبـــدون العـــداوة والخصامـــــا ؟
ولينـــا الأمـــر حزبـــاً بعـــد حـــــزب فلـــم نـــك مصلحيـــن ولا كرامـــــا
جعلنـــا الحكـــم توليـــــــة وعـــــزلاً ولـــم نعـــد الجـــزاء والانتقامـــــا
وسســـنا الأمـــر حيـــن خـــلا إلينـــا بأهواء النفـــــوس فمـــا اســـتقاما

فالكميت بن زيد كان شيعياً متعصباً للعلويين ، شديد الولاء لهم ، عظيـــم الإخلاص لدعوتهم ، ناقماً على بنى أمية اضطـــهادهم آل البيـــت واســـتئثارهم بالخلافة ، وهو فى هذه الأبيات يندد بحكم الأمويين ويدعو إلى بغضهم ويتمنـــى زوال سلطانهم وعزهم .

أما أحمد شوقى فهو شاعر عاش فى العصر الحديث فى مصر ، وشـــهد الأحداث والتقلبات السياسية التى منيت بها البـــلاد ، ورأى تنـــاحر الأحـــزاب

---

(١) أحمد شوقى : هو الشاعر الناثر ، ويلقب بأمير الشعراء ، انحدر من أصل تركى ، ولكنـــه ولد بمصر ونشأ فيها ، واستظل برعاية البيت المالك منذ مولده ، وتعلـــــم فـــى مدرســـة الحقوق وسافر إلى فرنسا ، ثم صحب الخديو ، ونال حظاً وافراً فى صحبتـــه ، وعندمـــا شبت الحرب الكبرى ١٩١٤م ارتحل عن مصر واختار أسبانيا مقراً له هو وأسرته حتـــى استقر السلام العالمى فأذن له فى العودة إلى مصر .
وكان رحمه الله شاعراً مجيداً نظم أفخر الكلام ، وأصاب أرفع المعانى ، وله نثر جيـــد ، واشتهر بعدة روايات تاريخية لعل أشهرها : مصرع كليوباترا وتوفى رحمه الله تعالى فى سنة ١٩٣٢م هامش المنتخب من أدب العرب ٥٢٥/٢ طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافـــة بمصر سنة ٢٠٠١م .

ومحترفى السياسة وما أدى إليه من تفرق الأمة والعبث بمقدراتها مـــن أجـل تحقيق المصالح الشخصية ، فعبر عن ذلك فى قصيدته التى اجتزأنا منها عـــدة أبيات .

وتبدو الفكرة متقاربة عند الشاعرين ؛ إذ كلاهما يندد بسياسة فئة معينـــة من الحكام ، فالكميت يندد بسياسة الأمويين وحكمهم . مبيناً أن سكوت المسلمين على مساوئهم وأفعالهم هو الذى دفعهم إلى الظلم والفساد ، فعطلوا بعض أحكـام الدين ، وعادوا بالناس إلى حياة الجاهلية ، فأذكوا روح العصبية وأثاروا الفتـــن والحروب ، ثم دعا " الكميت " إلى الثورة على الفساد وإزاحة الظلـــم وإقامـــة مجتمع عادل ، ولن يتحقق ذلك إلا بالقضاء على رموز الفساد وإزالة ملكهم .

والأمر قريب منه عند " شوقى " ؛ إذ هـــو يحـارب فســاد الأحـــزاب السياسية ، منكراً عليها ما بينها من فرقة وانقسام وعداء وتخبط ، شغل هذا البلد عن مكافحة المستعمر البغيض ، ثم يقرر " شـــوقى " أن المطـــامع الشـــخصية والأهواء النفسية هى التى سيطرت على قيادات هذه الأحزاب ، فجعلت كلاً منها يسعى لتحقيق مصالحه وأهدافه دون مراعاة صالح الأمة فأدى ذلك إلى فســـاد الأحوال وتعثر خطوات الإصلاح فى شتى المجالات .

وعاطفة الشاعرين : فيها صدق وقوة ، فالكميت يبدى إخلاصه للعلويـين وبنى هاشم وسخطه على الأمويين ، وكذا تبدى العاطفة غيرته الشـــديدة علـــى الدين وآلامه النفسية لتعطيل أحكامه ، ثم أمله الكبير فى عـــودة الحكـــم إلـــى مستحقيه شرعاً لأن ذلك – من وجهة نظره – هو سبيل خلاص المسلمين مـــن العناء والظلم .

و " شوقى " تبدو عاطفته الوطنية فى الأبيات واضحة جلية ، فحرصـــه على الوطن وانتماؤه الشديد وغيرته على مصالحه ومقدراته كل ذلك جعله يثور فى وجه الأحزاب السياسية المتناحرة متمنياً أن ينصرف كل حزب عن الجـوى وراء مطامعه مؤثراً العمل لصالح البلاد .

والخيال فى النصين محدود ، إذ المقام يستدعى استخدام الحقيقة لإبـراز الفكرة ، حيث يقتضى الموقف الإقناع بها والكشف عنها .

ولذا جاء الخيال متوارياً إلى حد كبير فى هذين النصين ، ومع ذلـك لا تعدم الصورة الخيالية فى قول الكميت :

فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى مساوئهم .....

حيث استعار النوم للسكوت عن مظالم بنى أمية ، وهى استعارة تـبرز المعنى دقيقاً رائعاً .

وأما **الأسلوب** عند الشاعرين فهو أسلوب خطابى يناسب الشعر السياسى. الذى يدعو إلى الثورة على الفساد والظلم ويحمـس فئـات الشـعب للنـهوض والاستيقاظ ، وفى أسلوب الكميت كثير من الجمل الإنشائية مثل : (حتام حتـام) أو التقديم والتأخير مثل قوله : (أمثال أهل الجاهلية نفعل) والاستفهام الكثير عند الشاعر يدل على ضيقه ببنى أمية ورغبته فى التخلص منهم .

ويكثر الاستفهام كذلك فى أبيات أمير الشعراء ، فهو يدل على ما يمـلأ نفس الشاعر من أسى وما يفيض به قلبه من حزن ، مصدره ما أصاب الأمـة من تفرق وتمزق .

والبيت الخامس رائع فى بيان مدى الاضطراب الذى لحق بسياسة البـلاد حيث خضعت للأهواء وسيطرت عليها المفاسد والمطامع الشخصية .

وقد تعاونت كل هذه العناصر الفنية لإبراز الفكرة فى النموذجين حيـث يتفق الشاعران فى أن كلاً منهما يصور الفساد فى أنظمة الحكم وانحرافها عـن الواجب ، غير أن الكميت يدعو إلى الثورة والغضب بدافع حرصه على الديـن ورد الحقوق المغتصبة – فى رأيه – إلى أصحابها الشرعيين من آل البيـت ، وشوقى يدعو إلى الثورة على الأحزاب المتفرقة ، ففكرة الكميت مبعثها الديـن والسياسة ، وفكرة شوقى مبعثها الوطنية ، وقد استطاع كلاهما أن يخدم الفكـرة التى حرص عليها ، مستعيناً فى سبيل ذلك بكل الوسائل المتاحة .

(٣)

عن البوصيرى وشوقى :

١- البوصيرى : هو محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن سرور بن حيـــان ابن عبد الله بن ملاك الصنهاجى، ينحدر من أصل مغربى، حيث ينتمى إلى بنى حبنون وهم فرع من قبيلة صنهاجة التى عاشت ببلاد المغرب ([1]).

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد مسقط رأسه ، فذكر المقريزى أنه ولـــد بدلاص بلدة أمة ، وأما ابن تغرى بردى فذكر أنه ولد ببهشيم من أعمال البهنسا التى تلحق بها مدينة دلاص الواقعة غربى النيل .

وكما اختلفوا فى موطنه – فقد اختلفوا فى العام الذى ولد فيه ، فقيـــل : ولد فى عام ٦٠٨هـ وقيل : ولد ما بين الأعوام السابع والثامن والعاشر مـــن القرن السابع الهجرى .

وعن حياته الثقافية يقول " محمد سيد كيلانى " محقق ديوانه : " ليس لدينا من أخبار البوصيرى ما يكشف لنا كيف قضى طفولته أو صباه ، غير أنه يمكن القول بأنه بدأ حياته الدراسية كما كان يبدؤها معاصروه ، وذلك بحفظ القرآن ، ثم جاء إلى القاهرة والتحق بمسجد الشيخ عبد الظاهر – ثم علق المحقق علـــى هذا المسجد قائلاً : بحثنا عنه فى كتب التاريخ فلم نعثر على شئ .. حيث درس العلوم الدينية وشيئاً من علوم اللغة والصـــرف والعـــروض كمـــا درس الأدب وجانباً من التاريخ الإسلامى ، وبخاصة السيرة النبوية ، وربما يكون قـــد درس فى مساجد أخرى غير مسجد الشيخ عبد الظاهر " ([2]) .

([1]) راجع : مقدمة ديوان البوصيرى بتحقيق محمد سيد كيلانى ص٥ مكتبة مصطفى البـــابى الحلبى بمصر الطبعة الثانية ١٩٧٣م .

([2]) السابق ص ٦.

وقد درس البوصيرى التصوف ، وتتلمذ على أبى العباس المرسى خليفة أبى الحسن الشاذلى وانتمى إلى الطريقة الشاذلية وكتب قصائد يمدح فيها الشاذلى والمرسى . فمن قوله عن المرسى :

سيف من الأنصار ماض حدُّه فاضرب به فى النائبات وهدِّد

ومن ذلك قوله :

فاصحب أبا العباس أحمد آخذاً يد عارف بهوى النفوس ومنجد

فإذا سقطت على الخبير بدائها فاصبر لمر دوائه وتجلد

وإذا كان البوصيرى قد درس مناقب الصوفية وتعلم أصولها ومدح أقطابها إلا أنه أخفق فى تشرب تعاليم المذهب يقول محقق الديوان :

" أراد البوصيرى أن يكون صوفياً فأخفق .. فلم يستطع أن يتشرب تعاليم الشاذلى ، وإننا لنجد فى أخلاقه وحياته المنزلية ما لا يتفق مع أخلاق الصوفية . ثم إنه كان رب أسرة كبيرة ، فاضطر أن يمدح الأمراء والوزراء ، وقد يكون فيهم الظالم الذى يستحق القدح ، وليس هذا من شأن الصوفية ، الذين كان الحكام يتزلفون إليهم ، وعلاوة على ذلك فإن البوصيرى كانت تغلب عليه الدعابة ، وقد عرف بها بين الناس ، حتى فضله بعضهم على الجزار : أحد من اشتهروا بالدعابة فى ذلك الوقت ، وكل هذا وغيره لا يتفق مع طابع التصوف ، أما البوصيرى كشاعر ، فإنه تأثر بالتصوف إلى حد كبير " (١) .

ومن يقرأ ديوان البوصيرى يجد فيه شعراً متعدد الأغراض من مدح وهجاء ودعابة ونقد للمجتمع ، غير أن جل شعره كان فى المديح النبوى يقول " عبد العال الحمامصى " : " لقد عاش البوصيرى فى مكابدة وضنك ومسبغة .. وانعكست ظروف العصر القاسية على حياته وشعره .. ولكنه وجد الخلاص

---

(١) مقدمة ديوان البوصيرى تحقيق : محمد سيد كيلانى ص ٢١ .

الحقيقى فى التمسك بدينه والالتجاء إلى حمى رسول الله - ﷺ - يلوذ بكنفـه .. إلى أن توفاه الله عام ٦٩٦هـ وله مسجد معروف فى مدينة الإسكندرية بالقرب من ضريح شيخه : أبى العباس المرسى " (١) .

ومن أشهر القصائد فى مدح النبى - ﷺ - بردة البوصيرى التى مطلعها:

أمن تذكـر جـيران بـذى سـلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بـدم

وقد زعم بعض من قرأها وعلق عليها أنه قالها فى مرضه ، وكان قـد فُلِجَ ، فنظمها متوسلاً بها إلى رسول الله - ﷺ - فشفى من مرضه ، وبعضـهم يبالغ فيقول : إنه - ﷺ - أكمل له بعض أبياتها .

وقد أبطل محقق ديوانه دعوى إصابته بالفالج ببيت من شعره حيث قـال يشكو من امرأته الولود :

أو هـذه الأولاد كلـهمو من فعل شـيخ ليـس بـالقوام ؟

فهو رجل يأتى زوجته وينجب منها وهو شيخ بلغ من الكبر عتياً ، فـهل يستطيع هذا رجل أبطل الفالج نصفه كما قيل ؟

فكل ما أشيع عن البردة كما يقول " الحمامصى " (٢) : هو مـن نسـج الخيال ، الخيال الذى أذكاه الواقع الصوفى المتأجج فى عصره .. ثم إن ديوانـه الذى حققه الأستاذ " محمد سيد كيلانى " لم ترد فيه قصيدة تذكر الفـالج الـذى أصابه ، وقد كان البوصيرى مثلاً للطبع المصرى الفضفاض الـذى يحـب أن يتحدث بكل ما يقع له .

وقد ذكر لنا أدق تفاصيل حياته ، حتى ما كان يحدث بينه وبين امرأتـه من شجار ، أفلا يذكر شيئاً عن مرضه الخطير الذى أقعده وألزمه بيته وفراشـه كما قيل ؟

---

(١) البوصيرى المادح الأعظم للرسول - عبد العال الحمامصى ص ٣٨ دار المعارف ١٩٧٨م.

(٢) راجع : البوصيرى المادح الأعظم للرسـول ص٢٦ ، ٢٧ بتصـرف ومقدمـة ديـوان البوصيرى للمحقق .

وإذا كانت القرائن المادية تنفى أن يكون البوصيرى قد قالها فى مـــرض شديد وأتمها له الرسول – ﷺ – حيث لم يرد فى الديوان شئ من هذا القبيـلى إلا أن بعض النقاد لم يستبعدوا ذلك وإن لم يشبر إليه الشاعر فى ديوانـــه ، يقـــول د. زكى مبارك : " ونرى أن البوصيرى صادق فى رؤياه ، لأن قوة الإيمـــان تؤثر أبلغ التأثير على الجسم ، ولاسيما إذا تذكرنا أنه لم يزد على أن قال : إنـــه وجد فى نفسه نهضة ، وذلك أقل ما ينتظر لرجل مؤمن يرى الرســول – ﷺ – فى المنام ، ويسمع منه التشجيع " (١) .

وقريب منه ما أشار إليه " عبد العليم القبانى " فى مقال بمجلة الهلال عدد أغسطس ١٩٧٣ بعنوان: " البوصيرى – إمام المادحين " حيث يقول : " قيـــل إن الرسول الكريم أتم بعض أبياتها للشاعر – فى رؤيا منامية – حيـــن عجـــز الشاعر عن إتمامها ، مع وجود نصوص قرآنية قد تتعارض مع هذا القـــول ، منها : " وما علمناه الشعر وما ينبغى له " فقد قالوا : إن هذا لا يمنع من القـــول بأن اشتغال الشاعر بموضوع قصيدته ، قد مهد له السبيل إلى هذا الرؤيا " .

ولعل الذى آثار هذا الخلاف حول البردة قول البوصيرى :

" كنت قد نظمت قصائد فى مدح الرسول – ﷺ – ، منها ما كان اقترحه علىَّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى خِلْطُ فالج أبطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتـــى هـــذه : الـــبردة ، فعملتـــها ، واستشفعت بها إلى الله فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها ، وبكيت ودعـــوت ، وتوسلت ونمت ، فرأيت النبى – ﷺ – فمسح على وجعى بيده المباركة ، وألقى علىَّ بردة ، فانتبهت ووجدت فىَّ نهضة ، فقمت وخرجت من بيتى ، ولم أكـــن أعلمت بذلك أحداً ، فلقينى بعض الفقراء ، فقال لى : أريد أن تعطينى القصيـــدة

---

(١) المدائح النبوية فى الأدب العربى د. زكى مبارك هـــامش ص ١٩٧ ط/ الهيئـــة العامـــة لقصور الثقافة سلسلة ذاكرة الكتابة عدد ٤٨ سنة ٢٠٠٣م .

التى مدحت بها رسول الله - ﷺ - ، فقلت : أيّها ؟ فقال : التى أنشأتها فى مرضك ، وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله - ﷺ - ، فرأيت رسول الله - ﷺ - يتمايل وأعجبته ، وألقى على من أنشدها بردة ، فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنام ، إلى أن اتصل بالصاحب بهاء الدين بن حنا ، فبعث إلىَّ ، وأخذها ، وحلف ألا يسمعها إلا قائماً حافياً مكشوف الرأس ، وكان يحب سماعها هو وأهل بيته ، ثم إنه بعد ذلك أدرك " سعد الدين الفارقىَّ " رمدٌ أشرف منه على العمى ، فرأى فى المنام قائلاً يقول له : اذهب إلى الصاحب ، وخذ البردة ، واجعلها على عينيك ، فتعافى بإذن الله عز وجل . فأتى إلى الصاحب ، وذكر منامه فقال : ما أعوف عندى من أثر النبى - ﷺ - بردة ، ثم فكر ساعة وقال : لعل المراد قصيدة البردة التى للبوصيرى . يا ياقوت افتح الصندوق الذى فيه الآثار ، وأخرج القصيدة التى للبوصيرى ، وأت بها ، فأتى بها ، فأخذها سعد الدين ، ووضعها على عينه ، فعوفى ، ومن ثم سميت البردة ، والله أعلم " (١) .

هذا وقد ذكرنا بعض ما دار حول نسبة هذا الكلام للبوصيرى – رحمه الله تعالى – وسوف نتناول فى مبحث قادم إن شاء الله تعالى هذه القصيدة ونهجها لأحمد شوقى بالتحليل والنقد نسأل الله العون .

٢- أحمد شوقى ونهج البردة :

هو أمير الشعراء ، كان ميلاده سنة ١٨٦٩م حين كانت مصر فى تاج تركيا ، أرادت له الأقدار أن يكون أمير الشعر الحديث ، فكان مولده بقصر الخديو إسماعيل ، ومرباه فى ربوع العز والجاه ، ونشأ نشأة مترفة أرادته شاعراً ، فوهب الشعر رقراقاً وهو لا يزال طالباً فى المرحلة الثانوية . يحصل

---

(١) راجعه فى ديوان البوصيرى .

العلوم فيصوغها شعراً بديعاً مثل قوله فى قارة إفريقية ذاكراً موقعها الجغرافـــى ومطامع الغرب فيها :

إفريقيـــا قســـم مـــن الوجـــود فـــى شـــكله أشـــبه بـــــالعنقود
وذلك العنقود فى المـــاء انغمـــر ما أملح الماء وما أحلى الثمـــر !
مـــدت إليـــه يدهـــــا أوربـــا مـــن فوقـــه كمـــن يريـــد الحبـــا

وقد أغرى هذا النبوغ المبكر القصر باحتضانه ، والإنفـــاق عليـــه فـــى مراحل التعليم المختلفة بمصر ، أو فرنسا لدراسة الحقوق حتى أتمـــها وتعلـــم الفرنسيـــة والإنجليزية والتركية ثم عاد ليستقبله القصر ، ويتلقى ثمرة رعايته ، فكان شوقى وفياً للخديو ولأبنائه من بعده وفى ذلك يقول :

أأخوان إســـماعيل فـــى أبنائـــه ولقـــد ولـــدت ببـــاب إســـماعيلا

وبقى شوقى قرابة النصف القرن يتغنى للقصر ويعبر عن رأيه ويتحـــرك فى إطاره ، حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٤ – ١٩١٨م) دق ناقوس الخطر ، حيث كان الخديو عباس فى تركيا فحال الإنجليز بينـــه وبيـــن العودة إلى مصر ، وحالوا بين شاعره وبين الذهاب إليه فى تركيا ، وفى هـــذا الجو من الرهبة وسيطرة الأحكام العرفية ، نفى شوقى إلى الأندلس مع أفـــراد أسرته فأقام بها مدة الحرب ثم عاد إلى مصر ليغير وجهته ، فيصبـــح شـــاعر الشعب بعد أن كان شاعر القصر أو الأمير .

وفى سنة ١٩٢٧م بايعه الشعراء العرب بإمارة الشعر ورددوا مع شـــاعر النيل حافظ إبراهيم قوله :

أمير القوافى قد أتيـــت مبايعـــاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معـــى

وقد قيل فى الباعث على نهج البردة : إن شوقى رحمه الله قد مرض فـــى أخريات حياته بمرض عضال ، فنذر إن شفاه الله وعافاه لابد أن ينـــهج نـــهج البوصيرى فى مدح رسول الله – ﷺ – بقصيدة طويلة ، وكان له ما أراد .

نص القصيدتين

أولاً : بردة البوصيرى

قال يمدح النبى ، ﷺ ؛ وهى من أشهر شعره . وهذه القصيدة تعرف بالبردة أو البُرْأة . وقيل : إنه مدح بها النبى - ﷺ - وهو مريض ، فعوفى من وقته وساعته :

أمِنْ تذكُّرِ جيران بذى سَلَم مزجتَ دمعاً جَرَى من مقلة بدم

أم هبت الريحُ من تِلْقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضَم

فما لعينيكَ إن قلتَ اكففا هَمَتا وما لقلبكَ إن قلتَ استفقْ يَهِم

أيحسب الصَّبُّ أن الحب منكتم ما بينِ منسجم منه ومضطرم (١)

لولا الهوى لم تَرِقْ دمعا على طلل ولا أرِقْتَ لذكر البان والعلَم

فكيف تنكر حبا بعد ما شهدتْ به عليك عدولُ الدمع والسَّقَم

وأثبت الوَجْدُ خَطَّىْ عَبرة وضَنًى مثل البَهَار على خديكَ والعَنَم (٢)

نعمْ سَرَى طيف مَنْ أهوى فأرَّقنى والحُبُّ يعترض اللذاتِ بالألم

يا لائمى فى الهوى العذرىِّ معذرةً منِّى إليك ولو أنصفتَ لم تلُم

عدَتْك حالىَ لا سِرِّى بمستتر عن الُوشاة ولا دائى بمنحسم (٣)

---

(١) المنسجم : الدمع السائل ، والمضطرم القلب : المشتعل بالحب .

(٢) البهار : ورد أصفر . والعنم : ورد أحمر .

(٣) عدتك : تجاوزتك . ومنحسم : منقطع .

مَحَّضْتَنِى النُّصْحَ لكنْ لستُ أسمعه إنَّ المحب عن العُذَّال فى صَمَم (١)

إنى اتَّهمتُ نصيح الشَّيب فى عَذَلٍ(٥) والشيبُ أبعد فى نصح عن التُّهم

فإنَّ أمَّارتى بالسوء ما اتعظتْ من جهلها بنذير الشيب والهَرَم (٢)

ولا أعَدَّت من الفعل الجميل قِرَى ضيفٍ ألَمَّ برأسى غيرَ محتشم

لو كنتُ أعلم أنى ما أُوقِّره كتمتُ سرًّا بدا لى منه بالكَتَم (٣)

مَنْ لى برد جماحٍ من غَوَايتها كما يُرَدّ جماحُ الخيل باللُّجُم

فلا تَرُمْ (٤) بالمعاصى كسر شهوتها إن الطعام يُقَوِّى شهوة النَّهِم

والنفس كالطفل إن تهملْه شبَّ على حُبِّ الرضاع وإن تفطمْه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن تُوَلِّيَهُ إن الهوى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ (٥)

وراعها وهْى فى الأعمال سائمةٌ وإن هى استحلت المرعى فلا تُسم(٦)

كم حسَّنتْ لَذَّةً للمرء قاتلةً مِنْ حيث لم يدر أن السُّمَّ فى الدَّسَم

---

(١) محضتنى النصح : أخلصته .

(٥) العذل بفتح الذال وسكونها : اللوم .

(٢) الأمارة بالسوء : هى النفس .

(٣) الكتم : نبت يخضب به كالحناء .

(٤) لا ترم : لا تقصد ولا تطلب .

(٥) أن توليه : تجعله والياً عليك . ويصم : يقبُل ؛ من أصمى . ويصم : يعيب ؛ من وصم .

(٦) السوم : الرعى فى العشب المباح .

واخش الدسائس من جوع ومن شِبَع فَرُبَّ مخمصةٍ شرٌّ من التُّخَم (١)

واستفرغِ الدمع من عين قد امتلأتْ من المحارم والزمْ حِمْيَةَ الندم (٢)

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محَّضاك النصح فاتَّهِمِ

ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

أستغفر الله من قول بلا عمل لقد نَسَبْتُ به نسلاً لذى عُقُم

أمَرْتُكَ الخيرَ لكنْ ما ائتمرتُ به وما استقمتُ فما قولى لكَ استقم

ولا تزودتُ قبل الموت نافلةً ولم أُصَلِّ سوى فرضٍ ولم أصُم

ظلمتُ سُنَّة من أحيا الظلام إلى أنِ اشتكتْ قدماه الضُّرَّ من وَرَم

وشدَّ من سَغَبٍ أحشاءه وطوى تحت الحجارة كَشْحاً مُتْرف الأدم (٣)

وراودتْه الجبال الشُّم من ذهب عن نفسه فأراها أيَّما شَمَم

وأكدتْ زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العِصَمِ(٤)

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةُ مَنْ لولاه لم تُخْرَجِ الدنيا من العدم

محمدٌ سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم

نبينُا الآمرُ الناهى فلا أحدٌ أبرَّ فى قول " لا " منه ولا " نعم "

---

(١) المخمصة : الجوع .

(٢) الحمية عن الشىء : الامتناع عنه .

(٣) السغب : الجوع . والكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع . والمترف : المنعم .

(٤) العصم : جمع عصمة ، وهى الحفظ .

هو الحبيب الذى تُرْجـــى شـفاعته لكـل هـولٍ مـن الأهـوال مقتَحَـــمَ
دعا إلـــى الله فالمستمســكون بـــه مستمســكون بحبـلٍ غـيرِ منفصـــم
فاق النبيين فى خَلْق وفـــى خُلُـق ولـم يدانـوه فـى علـم ولا كـــرم
وكلُّهم مـــن رسـول الله ملتمـس غَرْفاً من البحر أو رَشْفاً (١) من الدِّيَـم
وواقفـون لديـه عنـــد حدهـــم من نقطة العِلْم أو مـــن شَـكْلَة الحِكَـم
فهو الـذى تـم معنـاه وصورتُـه ثم اصطفاه حبيبـــاً بـارئُ النَّسَـم (٢)
مُنَزَّهٌ عـن شـريكٍ فـى محاسـنه فجوهر الحســن فيـه غـيرُ منقسـم
دعْ ما ادعته النصارى فـى نبيـهمُ واحكم بما شئت مدحـاً فيـه واحتكـم
وانسب إلى ذاته ما شئتَ من شرف وانسب إلى قدره ما شئتَ مـن عِظَـم
فإن فضل رسـول الله ليـس لـه حـدٌّ فيعُـربَ عنـه نـاطق بِفَـم
لو ناسـبتْ قـدرَه آياتُـه عِظَمـاً أحيا اسمُه حين يُدْعـى دارس الرِّمـم
لم يمتحِنَّا بمـا تعيـا العقـولُ بـه حرصاً علينا فلم نَرْتَبْ ولـم نَـهِم (٣)
أعيا الورى فهمُ معناه فليس يُـرَى فى القرب والبعـد فيـه غـيرُ منفحـم
كالشمس تظهر للعينين مـن بُعُـدٍ صغـيرةً وتُكِـلُّ الطَّـرفَ مـن أمَـم
وكيف يدرك فـى الدنيـا حقيقتَـه قـوم نيـام تسَـلوْا عنـه بالحُلُـم

---

(١) الرشف : المص . والديم : جمع ديمة ، وهى المطر .
(٢) النسم : جمع نسمة ، وهى الإنسان .
(٣) لم نهم : لم نضل .

فمبلـــغُ العلـــم فيـــه أنـــه بشـــــر وأنـــــه خـــيرُ خلـــق الله كلِّـــــهِم

وكلُّ آيٍ أتى الرُّسْـــلُ الكـــرامُ بـــها فإنمـــا اتصلـــتْ مـــن نـــــوره بِـــــهِمِ

فإنه شمسُ فضـــــلٍ هـــم كواكبـــها يُظْهِرن أنوارَهـــا للنـــاس فـــى الظُّلَـــم

أَكْـــرِمْ بخَلْـــق نبـــيٍ زانـــه خُلُـــق بالحســـن مشـــتملٍ بالبشـــر مُتَّسِـــــم

كالزَّهر فى ترفٍ والبدر فى شـــرف والبحرِ فى كـــــرم والدهـــرِ فـــى هِمَـــم

كأنـــه وهْـــو فـــردٌ مـــن جلالتـــــه فى عسكرٍ حيـــن تلقـــاه وفـــى حشـــم

كأنما اللؤلؤُ المكنونُ فـــــى صـــدف مـــن معدِنَـــىْ منطـــق منـــه ومبتســـم

لا طيبَ يعدل تُرْبـــاً ضـــمَّ أعظمَـــه طوبـــى لمنتشـــق منـــه وملتثـــــم (١)

أبان مولدُه عـــــن طيـــب عنصـــره يـــا طيـــب مبتـــدإ منـــــه ومختتـــــم

يومٌ تفـــرَّس فيـــه الفـــرسُ أنـــهمُ قـــد أُنـــذِروا بحلـــول البـــؤس والنِّقَـــم

وبات إيوانُ كسرى وهْو منصـــــدعٌ كشمل أصحـــاب كســـرى غـــيرِ ملتئـــم

والنارُ خامدةُ الأنفاس مـــــن أسَـــفٍ عليه والنهرُ ساهى العين من سَـــدَم (٢)

وساء ساوةَ أن غـــاضتْ بُحَيْرَتُـــها ورُدَّ واردها بـــــالغيظ حيـــن ظَمِـــى (٣)

كأن بالنارِ مـــا بالمـــاء مـــن بلـــلٍ حزنا وبالماء ما بالنار مـــن ضَـــرَم (٤)

---

(١) المنتشق : من يشمه ، والملتثم : من يقبله .

(٢) ساهى : ساكن . والسدم : الحزن .

(٣) ساوة : مدينة فى بلاد فارس بين همذان والرى .

(٤) الضرم : الالتهاب .

والجنُّ تـــهتف والأنـــوارُ ســـاطعةٌ والحقُّ يظهر مِـــنْ معنـــىً ومـــن كَلِـــم

عَمُوا وصَمُّوا فإعلانُ البشـــائر لـــم تُسْمَعْ وبارقـــةُ الإنـــذار لـــم تُشَـــم (١)

مِنْ بعد ما أَخْبَرَ الأقـــوامَ كاهنُـــهُم بـــأن دينـــهمُ المُعْـــوَجَّ لـــم يَقُـــم

وبعد ما عاينوا فى الأفق من شـــهب مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ ما فى الأرض مـــن صنـــم

حتى غداً عن طريق الوحى منـــهزمٌ مـــن الشـــياطين يقفـــو إِثْـــر منـــهزم

كأنـــهم هربـــاً أبطـــالُ أبرهـــةٍ أو عسكرٌ بالحصى من راحتيـــه رُمِـــى

نَبْذاً بـــه بعـــد تســـبيح ببطنـــهما نبـــذَ المُسَـــبِّح مـــن أحشـــاء ملتقـــم

جاءت لدعوتـــه الأشـــجارُ ســـاجدةً تمشى إليـــه علـــى ســـاق بـــلا قـــدم

كأنما سَطَرَتْ ســـطراً لِمَـــا كَتَبَـــتْ فروعُها من بديع الخط فـــى اللَّقَـــم(٢)

مثلَ الغمامـــةِ أنَّـــى ســـار ســـائرةً تقيـــه حـــرَّ وطيـــس للـــهجير حَمِـــى

أقسمتُ بـــالقمر المنشـــقِّ إنَّ لـــه مـــن قلبـــه نسـبةً مـــبرورةَ القســـم

وما حوى الغارُ من خيرٍ ومن كـــرم وكلُّ طَرْفٍ مـــن الكفـــار عنـــه عَمِـــى

فالصدقُ فى الغار والصديق لم يَرِمـــا وهم يقولون مـــا بالغـــار مـــن أرِم (٣)

ظنوا الحمامَ وظنوا العنكبوت علـــى خير البريـــة لـــم تنسُـــجْ ولـــم تَحُـــم

وقايةُ الله أغنـــتْ عـــن مضاعفـــة من الدروع وعن عال مـــن الأُطُـــم (٤)

---

(١) تشم : تنظر .

(٢) اللقم : بفتح اللام والقاف : وسط الطريق لكونها مشت مشى استقامة .

(٣) لم يرما : لم يبرحا . وأرِمْ على وزن كتف : العلم والأثر .

(٤) الأطم : الحصون .

ما سامنى الدهرُ ضيما واستجرتُ بـه إلا ونلـتُ جـواراً منـه لـم يُضَـم

ولا التمستُ غنى الدارين من يـده إلا استلمتُ النَّدَى مـن خـير مستَلَم

لا تنكرِ الوحىَ من رؤياه إنَّ لـه قلباً إذا نـامتِ العينـانِ لـم ينَـم (١)

وذاك حيـن بلـوغٍ مـن نبوتـه فليـس يُنْكَـرُ فيـه حـالُ محتلِـم (٢)

بـارك اللهُ مـا وَخَـىّ بمكتسَـب ولا نبـىٌّ علـى غيـبٍ بمتَّهم

م أبرأتْ وَصيباً باللمـس راحتـهُ وأطلقتْ أرِبـاً مـن ربقَـةِ اللَّمَـم (٣)

وأحيت السـنةَ الشـهباءَ دعوتُـه حتى حكت غُرَّةً فى الأعصُـر الدُّهُـم(٤)

بعارضٍ جادَ أو خِلْتَ البطـاحَ بـها سيبا من اليَمّ أو سيلاً مـن العَـرِم (٥)

عنى ووصفىَ آياتٍ لـه ظـهرت ظهور نـار القِـرَى ليـلا علـى علـم

الدُّرُّ يزداد حسـناً وهْـو منتظـم وليـس ينقـص قـدراً غـيرَ منتظـم

فما تطـاولُ آمـالُ المديـح إلـى ما فيه من كرم الأخـلاق والشِّـيَم (٦)

آياتُ حقٍّ مـن الرحمـن مُحْدَثَـةٌ قديمةٌ صفـةُ الموصـوفِ بـالقِدَم (٧)

---

(١) يقول : إن رؤيا النبى فى المنام هى وحى من عند الله .

(٢) المحتلم : الذى يرى الحلم فى النوم ، فحلم النبى كما يقول وحى لا ينكر .

(٣) الوصب : المريض . والأرب : المحتاج . والربقة أصلها الحبل . واللمم : الجنون .

(٤) السنة الشهباء : المجدبة .

(٥) أوخلت : أى إلى أن خلت . والبطاح : جمع أبطح ، وهو مسيل المـاء . والسـيب : الجرى . العرم : الوادى

(٦) تطاول إلى كذا : طلب الوصول إليه .

(٧) محدثة : إنزالها محدث .

لم تقترن بزمـــان وهْـى تخبرنـا عـن المعـاد وعـن عـاد وعـن إرم

دامت لدينـا ففـاقت كـل معجـزة مـن النبيين إذا جـاءت ولـم تـدُم

مُحكَّماتٌ فمـا تُبْقين مـن شُـبَهٍ لذى شـقاق ومـا تبغيـن مـن حَكَـم

ما حوربتْ قطُّ إلا عادَ مـن حَـرَبٍ أعدى الأعـادى إليـها مُلْقِـىَ السَّـلَم

رَدَّتْ بلاغَتُـها دعـوى مُعارِضِـها ردَّ الغَيُور يـدَ الجـانى عـن الحُـرَم

لها معانٍ كموج البحـر فـى مَـدَد وفوق جوهـره فـى الحسـن والقِيَـم

فمـا تُعَـدُّ ولا تُحْصَـى عجائبُـها ولا تُسـامُ علـى الإكثـار بالسَّـأم

قرَّتْ بها عينُ قاريـها فقلـتُ لـه لقـد ظفِـرتَ بحبـل الله فـاعتصم

إن تتْلُها خِيفةً من حر نـارِ لَظًـى أطفأتَ نارَ لظـى مـن وِرْدِهـا الشَّـبم

كأنها الحوضُ تَبْيَضُّ الوجـوهُ بـه مـن العصـاةِ وقـد جـاءوه كـالحُمَم

وكـالصراطِ وكـالميزانِ مُعْدِلـةً فالقِسْطُ مِنْ غيرِها فى الناسِ لـم يَقُـمِ

لا تعجبـنْ لحسـودٍ راح ينكرهـا تجاهلاً وهْـو عيـنُ الحـاذق الفَـهِم

قد تنكر العينُ ضوء الشمس من رمـدٍ وينكر الفَـمُ طعـمَ المـاء مـن سَـقَم

يا خير من يمَّم العـافونَ سـاحتَه سعياً وفوق متون الأَيْنُـق الرُّسُـم (١)

ومَنْ هو الآيـةُ الكـبرى لِمُعْتَـبِر ومَـنْ هـو النعمـةُ العظمـى لمغتنـم

سريتَ من حَرَم ليـلا إلـى حـرم كما سرى البدر فـى داج مـن الظُّلَـم

---

(١) العافون : طلاب الرزق. والأينق : النياق ، والرسـم : التـى ترسـم الأرض : أى تعلمها.

وبتَ ترقى إلـــى أن نلـــتَ منزلـــةً من قاب قوسين لم تُـــدْرَكْ ولـــم تُـــرَم

وَقَدَّمَتْـــكَ جميـــعُ الأنبيـــاءِ بـــــها والرُّسْلُ تقديَـــم مخـــدومِ علـــى خـــدم

وأنت تخترق السبع الطبـــاقَ بـــهمْ فى موكب كنـــتَ فيـــه صـــاحب العَلَـــم

حتى إذا لم تَـــدَعْ شـــأوا لمســـتبق مـــن الدُّنُـــوِّ ولا مَرْقًـــى لمســـــتنم (١)

خفضـــتَ كـــلَّ مقـــام بالإضافـــة إذ نوديت بالرفع مثلَ المفـــرد العلـــم (٢)

كيمـــا تفـــوزَ بوصـــلٍ أىً مُسْـــتَتِر عـــن العيـــون وســـرٍّ أىً مُكْتَتِـــم

فَحُزْتَ كـــلَّ فَخَـــار غـــيرَ مُشْـــتَرَكٍ وَجُـــزْتَ كـــلَّ مقـــامٍ غـــيرَ مُزْدَحَـــمِ

وجَلَّ مقدارُ ما ولِّيـــتَ مـــن رُتَـــب وعَـــزَّ إدراكُ مـــا أُولِيـــتَ مـــن نِعَـــم

بشرى لنا معشرَ الإســـلام إنَّ لنـــا مـــن العنايـــة ركنـــا غـــيرَ منـــهدِم

لمـــا دعـــا اللهُ داعينـــا لطاعتـــه بـــأكرم الرُّسْـــل كنـــا أكـــرمَ الأمـــم

راعت قلوبَ العـــدا أنبـــاءُ بَعْثَتِـــهِ كَنَبْـــأَةٍ أجفلـــتْ غُفْـــلا مـــن الغنـــم

ما زال يلقـــاهم فـــى كـــل مُعْـــتَرَك حتى حكَوا بالقَنَا لحماً على وَضَـــم (٣)

وَدُّوا الفرار فكـــادوا يَغْبِطـــون بـــه أشْلاءَ شـــالتْ مـــع العِقْبَـــان والرَّخَـــم

تمضى الليالى ولا يَـــدْرون عِدَّتَـــها ما لم تكن من ليـــالى الأشـــهر الحـــرم

كأنما الدين ضيـــف حـــل ســـاحتهم بكل قَـــرْمٍ إلـــى لَحْـــمِ العِـــدا قَـــرِم (٤)

---

(١) المستنم : طالب الرفعة إلى السنام ، وهو أعلى الشىء .

(٢) بالإضافة إلى مقامك . والرفع:الارتفاع ، وفيه تورية برفع الإعراب عند النحاة .

(٣) الوضم : كل خشبة يقطع عليها اللحم .

(٤) القَرْم : السيد . والقَرِم : بالتحريك شدة الشهوة إلى اللحم .

يجُرُّ بحرَ خميـــسٍ فــوق ســابحةٍ يَرْمى بموج مـــن الأبطـــالِ مُلتَطِـم (١)

مِـن كــل منتَــدِب لله محتســـبٍ يسطو بمستأصل للكفـــر مُصطَلِـم (٢)

حتى غدتْ ملةُ الإسلام وهْــى بــهِم مِن بعـــد غُربتــها موصولـــةَ الرَّحِـم

مكفولـــةً أبــداً منـــهم بخـــير أب وخيرِ بَعْــلٍ فلــم تَيْتَــمْ ولــم تَئِــم (٣)

هم الجبال فسل عنـــهم مُصادِمَـــهم ما ذا رأى منـــهمُ فــى كــل مصطَــدَم

وسل حُنَيناً وسلْ بدراً وســل أُحُــداً فُصُولُ حتفٍ لهم أدهى من الوَخَـــم (٤)

المصدِرِى البيضَ حُمْراً بعد مــاوردتْ من العدا كــلَّ مُسْــوَدٍّ مــن اللِّمَــم (٥)

والكاتبين بسُمْرِ الخــط مــا تركــتْ أقلامُهم حـــرفَ جسـمٍ غــيرَ مُنْعَجِـم

شاكى السلاحِ لهم سِــيْمَى تُمــيِّزهم والوردُ يمتاز بالسِّيمَى عن السَّـــلَم (٦)

تُهدى إليك رياحُ النصـــر نَشْــرَهم فتَحْسَبُ الزَّهَر فى الأكمـــامِ كُــلَّ كَمِــى

كأنهمْ فى ظهور الخيل نبـــتُ رُبَــاً من شدة الحَزْم لا من شدة الحُـــزُم (٧)

طارت قلوبُ العدا من بأسهم فَرَقــاً فمــا تُفَــرِّقُ بيــن البَــهْم والبُــهَم (٨)

---

(١) السابحة : الخيل .

(٢) المنتدب : المجيب .

(٣) التأيم : فقدان الزوج .

(٤) الوخم : الوباء .

(٥) اللمم : جمع لمة وهى الشعر إذا جاوز الأذن .

(٦) السيمى : العلامة . والسلم : نوع من الشجر .

(٧) الحَزْم : قوة الثبات . الحُزُم جمع حزام : وهى ما يشد به سرج الفرس ونحوها .

(٨) البُهْم جمع بَهَمة : وهو الصغير من الضأن . وجمع بُهْمة . وهو الشجاع .

ومن تكـــن برســول الله نصرتُــه إن تَلْقَــهُ الأسْــدُ فــى آجامــها تَجِــم

ولن ترى مِنْ ولىٍّ غـــيرِ منتصــر به ولا مـــن عــدو غــيرِ منقصِــم (١)

أحــلَّ أُمَّتَــهُ فــى حِــرْزِ ملتـــــه كالليث حــل مــن الأشــبال فــى أجَــم

كم جدَّلتْ كلمـــاتُ الله مــن جَــدِلٍ فيه وكم خَصَمَ البرهانُ من خَصِـــم (٢)

كفاكَ بــالعلم فــى الأُمــىِّ معجــزةً فــى الجاهليــة والتــأديب فــى اليُتُــم

خدمتُــه بمديــح أســـتقيل بـــه ذنوبَ عُمْرٍ مضى فى الشـــعر والخِــدَم

إذ قلدانــىَ مــا تُخْشَــى عواقبُــه كــأننى بــهما هَــدْىٌ مــن النَّعَــم (٣)

أطعتُ غَىَّ الصِّبَا فى الحالتين ومـــا حصلْــتُ إلا علــى الآثـــام والنـــدم

فيا خَســارةَ نفــسٍ فــى تجارتــها لم تشتر الدين بالدنيــا ولــم تَسُــم (٤)

ومــن يبــع آجــلاً منــه بعاجِلِــه يَبِنْ له الغبنُ فى بيــع وفــى سَــلَم (٥)

إنْ آتِ ذنبا فما عـــهدى بمنتقِــضٍ مــن النبــى ولا حبلــــى بمنصـــرم

فــإنَّ لــى ذِمَّــةً منــه بتســميتى محمــداً وهْــو أوفــى الخلــق بــالذمم

إن لم يكن فى مَعادى آخــذا بيــدى فضــلا وإلا فقــل يــا زَلَّـــةَ القَـــدَم

---

(١) المنقصم : المنقطع .

(٢) جدل : صرع . والجدالة : الأرض . والجدِل : كثير الجــدال ، خصمــه : غلبــه . والخصم : شديد الخصومة .

(٣) الهدى : ما يهدى إلى الحرم ليذبح .

(٤) سام البائع السلعة : عرضها للبيع : وسامها المشترى : طلب شراءها .

(٥) السلم فى البيع : هو البيع المؤجل الدفع .

حاشاه أن يَحْرِم الراجـــى مكارمـــه أو يَرْجِعَ الجـــارُ منـــه غـــيرَ محـــتَرَم
ومنـــذ ألزمـــتُ أفكـــارى مدائحَـــه وجدتـــه لخلاصـــى خـــيرَ ملـــتزِم
ولن يفوتَ الغِنَى منه يـــداً تَرِبَـــتْ إن الحيَا يُنْبِتُ الأزهار فـــى الأَكَـــم (١)
ولم أُرِدْ زهرةَ الدنيا التى اقْتَطَفَـــتْ يَـــدَا زهـــيرٍ بمـــا أثنـــى علـــى هَـــرِم
يا أكرمَ الرُّسْل مالى من ألـــوذ بـــه سواك عند حلـــول الحـــادث العَمِـــم (٢)
ولن يضيق رسولَ الله جـــاهُك بـــى إذا الكريـــمُ تَحَلَّـــى باســـم منتقـــم (٣)
فإنَّ من جـــودك الدنيـــا وضَرَّتَـــها ومن علومك علـــمَ اللـــوح والقَلـــم (٤)
يا نفس لا تقنطى من زَلَّةٍ عظُمـــتْ إن الكبـــائر فـــى الغفـــران كـــاللَّمَم (٥)
لعل رحمـــةَ ربـــى حيـــن يَقسِـــمها تأتى على حسب العصيان فـــى القِسَـــم
يا ربِّ واجعل رجائى غيرَ منعكـــس لديكَ واجعل حسابى غـــيرَ منخـــرِم(٦)
والطف بعبدك فى الداريـــن إنَّ لـــه صبرا متـــى تدعُـــهُ الأهـــوالَ ينـــهزم
وائذن لسُحْبِ صـــلاةٍ منـــكَ دائمـــةٍ علـــى النبـــى بُمنْـــهَلٍّ ومُنْسَـــجم (٧)
ما رنَّحتْ عذَباتِ البان ريـــحُ صَبًـــا وأَطْرَبَ العِيسَ حادى العيسِ بـــالنَّغَم(٨)

---

(١) تربت : افتقرت . والأكم جمع أكمة : وهى الربوة .
(٢) الحادث العمم : يوم القيامة ؛ لأن هوله يعم الخلق .
(٣) تحلى : اتصف . والمنتقم : من أسماء الله .
(٤) ضرة الدنيا : هى الآخرة .
(٥) اللمم : صغار الذنوب .
(٦) المنخرم : المتقطع .
(٧) المنهل : السائل بشدة . والمنسجم : السائل بهدوء ورفق .
(٨) رنحت : أمالت . وعذبات البان : أغصانه . والعيس : الإبل البيض .

ثانياً : نهج البردة لشوقى :

ريمٌ على القاع بين البـــان والعلــم أحل سفك دمى فى الأشهر الحــرم (١)
رمى القضاء بعينَـــىْ جــؤذر أســدا يا ساكن القاع ، أدرك ساكن الأجــم(٢)
لما رنـــا حدثتنـــى النفــس قائلـــة ياويح جنبك،بالسهم المصيب رُمِـى(٣)
جحدتُها ، وكتمتُ السهم فى كبـــدى جُرحُ الأحبة عندى غيرُ ذى ألـــم (٤)
رُزِقْتَ أسمح ما فى الناس من خلــق إذا رزقتَ التماس العذر فى الشَّيَم (٥)
يا لائمى فى هواه - والهوى قــدر - لو شَفَّكَ الوَجْدُ لم تعذل ولم تلـــم (٦)
لقــد أنلتــك أذنـــاً غــيرَ واعيـــة ورُبَّ مُنْتَصِــتٍ والقلــبُ فــى صمــم
يا ناعس الطرف، لاذقت الهوى أبــداً أسهرتَ مُضْنَاكَ فى حفظ الهوى فنــم(٧)
أفْدِيكَ إلفاً ، ولا آلو الخيـــال فــدى أغراك بالبخل مـــن أغْــراه بــالكرم
سرى ، فصادف جُرحا دامياً ، فأســا ورب فضــل علــى العشــاق للحُلُــم

---

(١) الرئم : الظبى الخالص البياض . والقاع : الأرض السهلة المطمئنة . والبان : جمـــع بانة ، ضرب من الشجر . والعلم : الجبل .

(٢) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية . والأجم : جمع أجمة ، وهى الشجر الكثير الملتـــف ، وهو مسكن الأسد .

(٣) رنا : أدام النظر فى سكون الطرف .

(٤) جحدتها ، الجحود : الإنكار مع العلم .

(٥) الشيم : جمع شيمة ، وهى الخلق والطبيعة .

(٦) شفه الوجد : أهزله وأنحل جسمه .

(٧) الناعس : الوسنان . والطرف (بالفتح) : العين . والمضنى : الذى أثقلـــه المـــرض . ومضناك : الذى أضنيته بما لحقه من الوله عليك .

مِنْ الموائـــسِ بانـــاً بـــالرُّبى وقَنـــاً اللاعباتُ بروحى،السافحات دمـــى؟(١)

السافراتُ كأمثـــال البـــدور ضحـــى يُغِرْنَ شمسَ الضحى بالحَلْى والعِصَـــم(٢)

القـــاتلاتُ بأجفـــانٍ بـــها سَـــقَم وللمنيـــة أســـبابٌ مـــن السَّـــقَم

العـــاثراتُ بألبـــاب الرجـــال ، ومـــا أقلن من عثرات الدَّلِّ فـــى الرَّســـم(٣)

المضرماتُ خدوداً، أسفرت، وَجَلَـــتْ عن فتنـــةٍ ، تُســـلم الأكبـــادَ للضَّـــرَم

الحـــاملاتُ لـــواءَ الحســـن مختلفـــاً أشكاله ، وهـــو فـــرد غـــيرُ منقســـم

من كل بيضـــاءَ أو ســـمراءَ زُيِّنَتـــا للعين، والحسن فى الآرام كـــالعُصُم(٤)

يُرَعْنَ للبصر السامى . ومِنْ عجـــب إذا أشرن أســـرن الليـــث بـــالعَنَم (٥)

وضعتُ خدى، وقسَّمتُ الفؤاد ربًـــى يرتعن فى كُنُس منـــه وفـــى أكَـــم (٦)

---

(١) الموائس : جمع مائسة ، وهى المتبخترة. والبان : ضرب من الشجر واحدتها : بانة ، والقنا : جمع قناة ، وهى الرمح . وسفح الدم : سفكه وأساله .

(٢) الحلى : ما تزين به المرأة من مصوغ المعادن وكريم الحجارة . والعصم : القلائـــد ، جمع عصمة .

(٣) أقاله من عثرته : أنهضه منها . والدل قريب المعنى من الهدى : وهما من الســـكينة والوقار فى الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك . والرسم : حسن المشى .

(٤) العصم : جمع أعصم ، الذى فيه العصمة بالضم ، وهى بياض اليدين والعصماء مـــن المعز : البيضاء الذراعين وسائرها أسود وأحمر .

(٥) يرعن : يخفن . والعنم : شجرة حجازية لها ثمرة حمراء تشبه بها البنان المخضوبة .

(٦) الكنس (بضمتين) جمع كناس : وهو مستقر الظباء فى الشجر . والأكم : جمع أكمـــة وهى الموضع يكون أشد ارتفاعاً مما حوله .

يا بنت ذى اللَّبـــدِ المحمـــىّ جانبُـــه ألقاكِ فى الغاب،أم ألقاكِ فى الأطُـــم؟(١)

ما كنت أعلم حتـــى عـــنَّ مســكنُه أن المنى والمنايا مضـــرِب الخِيَـــم (٢)

مَن أنبت الغصن من صمصامةٍ ذكـــر وأخرج الرِّيم من ضِرْغامـــة قَـــرِم (٣)

بينى وبينكِ من سُمْر القَنَـــا حجـــبٌ ومثلُـــها عفـــةٌ عذريـــةُ العِصَـــم (٤)

لم أغشَ مغناكِ إلا فى غضون كَـــرًى مغناكِ أبعـــدُ للمشـــتاق مـــن إرَم (٥)

يا نفس ، دنياك تخفى كـــل مبكيـــةٍ وإن بـــدا لـــك منـــها حســـنُ مبتســـم

فُضِّى بتقواك فاهـــاً كلمـــا ضحكـــت كما يُفَضُّ أذى الرَّقشـــاءِ بـــالثَّرَم (٦)

---

(١) اللبد : جمع لبدة ، وهى الشعر المتراكب بين كتفى الأسد . والغاب : جمـــع غابـــة ، وهى الشجر المتكاثف . والأطم : القصر ، وكل حصن مبنى بالحجارة .

(٢) عَنَّ الشىء : بان وظهر . والمنايا : جمع المنية ، وهى الموت . ومضرب الخيـــم : المكان الذى تضرب فيه وتقام ، أى حيث تنزل تلك المحبوبة فى جوار أبيها .

(٣) الصمصامة : السيف . والضرغامة : الأسد . وأراد " بالغصن " و الريم" معشوقته ، و " بالصمصامة " و " الضرغامة " أباها . يتعجب كيف يولد لمثل هـــذا الرجـــل ، الشبيه بالسيف فى صلابته ومضائه ، مثل هذه المعشوقة ، التى هى كالغصن فـــى اللدونة ولطف التثنى وأيضاً : كيف يكون لمن يشبه الأسد فى قوته وسطوته وبأسه ، مثل هذه التى تشبه الغزال فى رقته وضعفه ؟

(٤) العفة العذرية : نسبة لقبيلة بنى عذرة ، اشتهر شبابها بالعشق والعفاف . والعصـــم : جمع عصمة وهى المنع والحفظ .

(٥) غشى المكان : وافاه . والمغنى : المنزل الذى غنى به أهلـــه . والكـــرى : النـــوم . وإرم : هى إرم ذات العماد ، التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم .

(٦) الرقشاء من الحيات : المنقطة بالسواد والبياض . والثرم : كسر السن من أصلها .

مخطوبةٌ -منذ كان الناسُ-خاطبــــةٌ من أول الدهر لم تُرْمِل ، ولم تنـــم (١)

يَفْنَى الزمانُ . ويبقى من إســـاءتها جُرحٌ بآدمَ يبكـــى منـــه فـــى الأَدَم (٢)

لا تحفلـــى بجناهـــا . أو جنايتـــــها الموت بالزهر مثلُ الموت بـــالفَحَم (٣)

كم نائم لا يراهـــا ، وهْـــى ســـاهرة لولا الأمـــانىُّ والأحـــلامُ لـــم يَنَـــم (٤)

طوراً تمـــدك فـــى نُعْمـــى وعافيـــةٍ وتارة فى قرار البـــؤس والوصـــم (٥)

كم ضللتك ،ومن تُحْجَـــبْ بصيرتُـــه إن يلق صاباً يَرِدْ ، أو علقماً يَسُـــم (٦)

يا ويلتاه لنفســـــى ! راعـــها وَدَهَـــا مُسْوَدَّةُ الصحفِ فى مُبْيَّضِةِ اللَّمَـــم (٧)

ركضتها فى مريع المعصيات ، ومـــا أخذتُ من حِمْيَةِ الطاعـــات للتُّخَـــم (٨)

---

(١) أرملت المرأة : أى مات عنها زوجها . وآمت المرأة من زوجها تئيم . والأيم : التـــى لا زوج لها . سواء أكانت بكراً ، أم كان لها زوج فقدته .

(٢) الأدم : الجلد . يقول : مع أن حالها وحال الناس ما ذكرنا ، فإن إساءتها ما تنتـــهى ، حتى إن آدم عليه السلام لا ينسى كيدها إلى آخر الزمان ، وفى البيت الجناس بيـــن آدم والأدم .

(٣) الجنى : ما يجتنى من الشجرة ويقطف من ثمرها .

(٤) يريد بالنائم : المغتر بالدنيا الغافل عن مصائبها وغيرِها .

(٥) الوصم (بالتحريك) : الألم والمرض . يقال وصمته الحمى فتوصم : أى آلمته فتألم.

(٦) الصاب : جمع صابة ، شجر مر . والعلقم : الحنظل ، ويسم : من سام يســـوم : أى رعى يرعى .

(٧) دها : أى دهاها . اللمم : جمع لمة ، وهى الشعر يجـــاوز شـــحمة الأذن . مســـودة الصحف : كناية عن العمل السيئ .

(٨) ركضتها : المراد هنا مجرد إطلاق النفس وإرسالها فى طريق غوايتها . والمريـــع : الخصيب .

هامت علـــى أثـــر اللـــذات تطلبـــها والنفس إن يدعها داعى الصِّبَـــا تَـــهِم

صـــلاحُ أمـــركَ للأخـــلاق مرجعُـــه فقَـــوِّم النفـــسَ بـــالأخلاق تســـــتقم

والنفس من خيرها فى خير عافيـــةَ والنفس من شرها فى مرتع وخـــم (١)

تَطْغَى إذا مُكِّنَتْ مـــن لِـــذَّةٍ وهَـــوًى طَغْيَ الجياد إذا عضت على الشُّـــكُم(٢)

إن جل ذنبى عن الغفران لـــى أمـــل فى الله يجعلنـــى فـــى خـــير معتصَـــم

أُلَقِى رجائى إذا عَزَّ المُجِـــيرُ علـــى مفرِّجِ الكـــرب فـــى الداريـــن والغُمَـــمِ

إذا خفضـــتُ جَنَـــاح الـــذل أســـأله عِزَّ الشفاعة ؛ لم أســـألْ ســـوى أَمَـــم

وإن تقَـــدَم ذو تقـــوى بصالحـــةٍ قدمـــت بيـــن يديـــه عَـــبْرَةَ النـــــدم

لزمت باب أمـــير الأنبيـــاء ، ومـــن يُمْسِـــكْ بمفتـــاح بـــاب الله يغتنـــم

فكل فضـــل ، وإحســـان ، وعارفـــة مـــا بيـــن مســـتلمٍ منـــه وملـــتزَمِ

عَلِقْتُ من مدحـــه حبـــلاً أَعَـــزُّ بـــه فى يـــومِ لا عِـــزَّ بالأنســـاب واللُّحَـــم

يُزْرِى قريضى زهيراً حيـــن أمدحـــه ولا يقاس إلى جودى نـــدى هَـــرِم (٣)

محمد صفـــوةَ البـــارى ، ورحمتـــه وبغيـــةَ الله مـــن خلـــق ومـــن نَسَـــم

---

(١) المرتع : موضع الرتوع . والوخم : الردئ الوبى .

(٢) الشكم : جمع شكيمة ، وهى الحديدة المعترضة فى لجام الفرس .

(٣) يزرى : يعيب . والقريض : الشعر ، وزهير : هو زهير بن أبى ســـلمى المزنـــى ، كان سيدا غنياً فى الجاهلية ، معروفاً بالحلم والحكمة ، شاعراً فحلا ، وهرم . بكســـر الراء : هو هرم بن سنان بن أبى حارثة المرى ، مدح زهير هرماً فأحسن ، ووصلـــه هرم فأجزل الصلة ، وبالغ فى العطاء .

وصاحب الحوض يومَ الرسْلُ سائلةٌ متى الورودُ؟وجبريل الأمين ظَمِى(١)

سناؤه وسناه الشمس طالعةٌ فالجِرْمُ فى فَلَكٍ ، والضوء فى علم

قد أخطأ النجمَ ما نالت أبوتُه من سؤدد باذخ فى مظهر سنم (٢)

نُمُوا إليه، فزادوا فى الورى شرفاً ورُبَّ أصل لفرع فى الفخار نُمِى

حَوَاه فى سُبُحاتِ الطهر قبلهمُ نورانِ قاما مقام الصُّلْبِ والرَّحم

لما رآه بحِيرا قال : نعرفه بما حفظنا من الأسماء والسِّيَم (٣)

سائل حراء،وروحَ القدْس: هل علما مصونَ سرٍّ عن الإدراك منكتم

كم جِيئَةٍ وذهاب شُرِّفتْ بهما بطحاءُ مكة فى الإصباح والغَسَم (٤)

ووحشةٍ لابن عبد الله بينهما أشهى من الأنس بالأحباب والحشم

يسامر الوحىَ فيها قبل مهبطه ومن يبشَّرْ بسِيمَى الخير يتَّسِم

لما دعا الصحبْ يستسقون من ظمأْ فاضت يداه من التسنيم بالسَّنِم (٥)

---

(١) وجبريل الأمين ظمى : الملائكة لا تظمأ ، فلعل مراده بالظمأ هنا لازمه وهو الطلب أى للناس بمعنى أن حاله تقتضى ذلك إشفاقاً على حالهم ، لما يرهقهم من شدة الظمأ وحرج الموقف .

(٢) السؤدد : السيادة ، والباذخ : العالى . السنم (ككتف) : المرتفع .

(٣) السيم : جمع سيمة ، وهى العلامة . وبحيرا ، بفتح الياء وكسر الحاء : الراهب النصرانى المشهور .

(٤) البطحاء : المسيل الواسع فيه دقاق الحصى . والغسم : الامساء وظلمة الليل . " الإصباح والغسم " : أى من كل مرة كان يطلب فيها النبى ﷺ حراء .

(٥) التسنيم : ماء بالجنة يجرى فوق الغرف ، وسنم الإناء تسنيماً : ملأه ، فكأنه أراد بالسنم هنا الإناء المملوء .

وظللتـــه ، فصـــارت تســـتظل بـــه غمامـــةٌ جذبتْـــها خِـــيرَةُ الدِّيَـــم

محبـــةٌ لرســـول الله أُشَـــرِبَها قعائدُ الدير ، والرهبانُ فى القمـــم (١)

إن الشـــمائل إن رقـــت يكـــاد بـــها يُغْرَى الجمادُ، ويغرى كـــلُّ ذى نَسَـــم

ونودى : اقـــرأ تعـــالى الله قائلـــها لم تتصلْ قبـــلُ مَـــنْ قيلـــت لـــه بفـــم

هنـــاك أُذِّنَ للرحمـــن ، فـــامتلأت أســـماعُ مكـــةَ مـــن قدســـية النغـــم

فلا تسل عن قريش كيف حَيْرتُـــها ؟ وكيف نَفْرَتُـــها فـــى الســـهل والعلـــم

تساءلوا عن عظيم قـــد ألـــمَّ بـــهمْ رمى المشـــايخَ والولـــدانَ بـــاللَّمَم (٢)

يا جاهلين على الـــهادى ودعوتـــه هل تجهلون مكـــان الصـــادق العلَـــمَ ؟

لقبتموه أميـــنَ القـــوم فـــى صغـــر ومـــا الأميـــنُ علـــى قـــول بمتـــهم

فاق البدور ، وفاق الأنبيـــاءَ ، فكـــمْ بالخُلْق والخَلْق من حُسْنٍ ومن عِظَـــم

جاء النبيون بالآيـــات ، فـــانصرمت وجئتنـــا بحكيـــم غـــير منصـــرم

آياتـــه كلمـــا طـــال المـــدى جُـــدُدٌ يَزِينـــهن جـــلالُ العتـــق والقِـــدَم

يكـــاد فـــى لفظـــة منـــه مشـــرفة يوصيك بالحق ، والتقـــوى وبـــالرحم

يا أفصح النـــاطقين الضـــادَ قاطبـــة حديثُك الشَّـــهْد عنـــد الذائـــق الفَـــهِم

---

(١) القعائد : جمع قعيدة . وقعائد الدين : ملازموه من متنسكة النصارى والقمـــم : جمـــع قمة ، وهى أعلى الرأس من كل شئ ، والمراد بها هنا أعالى الجبل .

(٢) ألمَّ : نزل . واللمم (محركة) الجنون .

حَلَّيْتَ من عَطَلٍ جِيدَ البيان به فى كل منتثر فى حسن منتظِم

بكل قول كريم أنت قائلُه تحيى القلوب ، وتحيى ميِّت الهمم

سرتْ بشائرُ بالهادى ومولده فى لشرق ولغرب مسوى نور فى لظُّلم

تخطفتْ مُهَجَ الطاغين من عرب وطيَّرتْ أنفسَ الباغين من عجم

رِيعَتْ لها شُرَفُ الإيوان،فانصدعت من صدمة الحق لا من صدمة القُدُم

أتيتَ والناس فوضى لا تمرُّ بهمْ إلا على صنم ، قد هام فى صنم

والأرضُ مملوءةٌ جوراً ، مسخرةٌ لكل طاغية فى الخلق محتكم

مسيطِرُ الفرسِ يبغى فى رعيته وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصمُّ عَمِ

يعذبان عباد الله فى شُبَهٍ ويَذْبَحَانِ كما ضحيتَ بالغنم

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم كالليث بالبُهْمِ ، أو كالحوت بالبَلَمِ (١)

أسرى بك الله ليلاً ، إذ ملائكُه والرسلُ فى لمسجد الأقصى على قدم (٢)

لما خطرتَ به التفوا بسيدهم كالشهب بالبدر ، أو كالجند بالعلم

صلى وراءك منهم كلُّ ذى خطر ومن يفز بحبيب الله يأتمِ

جُبْتَ السموات أو ما فوقهن بهم على مُنَوَّرَةٍ دريةِ اللُّجُم

ركوبة لك من عز ومن شرف لا فى الجياد،ولا فى الأينُق الرُّسُم(٣)

---

(١) البهم : جمع بهمة . وهى ولد الضأن والمعز . والبلم : صغار السمك .

(٢) المسجد الأقصى : بيت المقدس . وعلى قدم : قائمون محتشدون .

(٣) الأينق الرسم : النوق الشديدة الوطء لقوتها ، حتى كأنها ترسم فى الأرض بمشيها أثاراً ظاهرة ، والرُسُم : واحدها رسوم ، والجياد : جمع جواد ، وهو الفرس الرائع البين الجودة .

مشيئةُ الخالق البـــارى ، وصنعتــه وقــدرُةَ الله فــوق الشــك والتُّـــهَم

حتى بلغـــتَ ســماء لا يُطَــار لــها على جناح ، ولا يُسْنـــعَى علــى قــدم

وقِيــل : كــلُّ نبــى عنــد رتبتـــه ويا محمـــدُ ، هــذا العــرش فاســتلم

خطَطْتَ للديـــن والدنيـــا علومـــهما يا قارئ اللوح ، بل يا لامس القلـــم(١)

أحطتَ بينهما بالســـر ، وانكشــفتْ لك الخزائنُ من علْـــم ، ومـــن حِكَـــم

وضاعفَ القربُ ما قُلِّدتَ من مِنَـــنٍ بلا عِـدادٍ ، ومـــا طُوِّقْـتَ مـــن نِعَـم

سل عصبةَ الشرك حول الغار ســائمةً لــولا مطــاردةُ المختــار لــم تَسُـــم

هل أبصروا الأثر الوضّاء،أم ســمعوا همس التسابيح والقـــرآنَ مـــن أمَـــم

وهل تمثَّل نســـجُ العنكبــوت لــهم كالغاب،والحائمـــاتُ الزُّغْــبُ كــالرُّخَم(٢)

فأدبروا ، ووجـــوهُ الأرض تلعنـــهم كبــاطل مــن جــلال الحــق منـــهزم

لوى يــدُ الله بالجــارين مــا ســلما وعينه حول ركن الديـــن ؛ لــم يقــم

توارِيـــا بجنـــاح الله ، واســـــتترا ومـــن يضُـــمُّ جنـــاحُ الله لا يُضَـــم

يا أحمدَ الخير ، لى جـــاهٌ بتســميتى وكيف لا يتســـامى بالرســول سَـمِى

المـــادحون وأربـــابُ الـــهوى تبـــعٌ لصاحب الـــبردة الفيحـــاء ذى القَـــدَم

---

(١) خطه علوم الدين والدنيا : كناية عن تعليمها الناس ، وبثها فيهم وقراءة اللوح ولمـــس القلم : كناية عن إطلاع الله له على ما أطلعه عليه من الغيوب .

(٢) الغاب : الشجر الكثير المتكاثف والحائمات الزغب : الحمام ، والرخم : جمع رخمة ، وهى طائر على شكل النسر ، إلا أنه منقط السواد والبياض .

مديحةُ فيكَ حــبٌّ خــالص وهــوى وصادق الحب يملـــى صــادق الكلــم
الله يشـــهد أنـــى لا أعارضـــه من ذا يعارض صوب العــارض الغَـرِم(١)
وإنما أنا بعض الغــابطين ، ومــن يغبــطْ وليَّــكَ لا يُذْمَـــم ، ولا يُلَـــم
هذا مقــامٌ مــن الرحمــن مُقْتَبَــسٌ تَرْمــي مهابتَــهُ ســحبانَ بــالبَكَم (٢)
البدر دونكَ فى حسن وفـــى شــرف والبحر دونك فـــى خــير وفـــى كــرم
شُمُّ الجبال إذا طاولْتَـــها انخفضــتْ والأنجم الزُّهْر ما واســمتَها تسِــم (٣)
والليث دونـــك بأســاً عنــد وثبتــه إذا مشيت إلى شاكى السلاح كَمِـــى (٤)
تهفو إليـــك - وإن أدميــتَ حبتــها فى الحرب- أفئـــدةُ الأبطــال والبُــهُم
محبـــةُ الله ألقاهـــا - وهيبتُـــه على ابــن آمنــةٍ فــى كــل مصطــدم
كأن وجهك تحت النقع بـــدرُ دُجــىً يضــىء ملتثمــاً ، أو غــيرَ ملتثـــم
بــدرٌ تطلــع فــى بــدرٍ ، فَغُرَّتُـــه كغرة النصــر ، تجلــو داجــى الظُّلَــم
ذُكِرْتَ باليتم فـــى القــرآن تَكْرِمَــةً وقيمة اللؤلـــؤ المكنــون فــى اليُتُــم

---

(١) الصوب : الانصباب ، ومجىء السماء بالمطر . والعارض : السحاب المعترض فــى الأفق . والعرم : يريد المطر الشديد .

(٢) البكم : الخرس . وسحبان : هو سحبان وائل من بنى باهلة . كان يضرب بفصاحتــه المثل .

(٣) يقال : واسمه فى الحسن فوسمه : غلبه فيه .

(٤) الكمى : لابس السلاح .

الله قسم بين الناس رزقهمُ وأنت خُيِّرْتَ فى الأرزاق والقِسَم

إن قلت فى الأمر:"لا"أو قلت فيه:"نعم" فَخِيرة الله فى " لا " منك أو " نعمِ "

أخوكَ عيسى دعا ميْتاً ، فقام له وأنت أحييت أجيالاً من الرِّمَم

والجهل موت ، فإن أُوتِيتَ معجزة فابعث من الجهل،أو فابعث من الرَّجَم

قالوا:غزوتَ ، ورسلُ الله ما بعثوا لقتل نفس ، ولا جاءوا لسفك دم

جهلٌ ، وتضليلُ أحلامٍ ، وسفسطةٌ فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفواً كلُّ ذى حسب تكفل السيف بالجهال والعَمَم

والشرُّ إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً ، وإن تلقه بالشر ينحسم

سل المسيحيةَ الغراء : كم شَرَبَتْ بالصاب من شهوات الظالم الغَلِم (١)

طريدةَ الشرك ، يؤذيها ، ويوسعها فى كل حين قتالاً ساطع الحدم (٢)

لولا حماة لها هبوا لنصرتها بالسيف، ما انتفعت بالرفق والرَّحِم

لولا مكانٌ لعيسى عند مرسله وحرمةَ وجبت للروح فى القِدَم

لَسُمِّرَ البدنُ الطُّهْرُ الشريفُ عَلَى لوحين، لم يخش موذيه، ولم يَجُم (٣)

جلَّ المسيحُ ، وذاق الصَّلْبَ شانِئُه إن العقاب بقدر الذنب والجُرُم

---

(١) الغلم : الهائج الثائر .

(٢) الحدم : (بالتحريك) : شدة احتراق النار .

(٣) اللوحان : الصليب الذى أعد له عليه السلام ، والمراد بالتسمير : الصلب . لم يجم لم يفزع .

أخو النبـــى ، وروح الله فـــى نُـــزُلٍ فوق السماء ودون العـــــرش مُخْـــترَم

علمتهم كـــــل شـــئ يجـــهلون بـــه حتى القتـــالَ ومـــا فيـــه مـــن الذِّمَـــم

دعوتـــهم لجـــهادٍ فيـــه ســـــؤددهم والحـــربُ أسُّ نظـــام الكـــون والأُمَـــم

لولاه لم نـــر للـــدُّولات فـــى زمـــن ما طال من عَمَدٍ ، أو قـــر مـــن دَعَـــم

تلك الشـــــواهد تـــترى كـــلَّ آونـــة فى الأعصر الغُرِّ،لا فى الأعصر الدُّهُـــم(١)

بالأمس مالت عروشُ،واعتلت ســـرر لولا القذائف لـــم تُثْلَـــم ، ولـــم تُصَـــم

أشياعُ عيسى أعـــدوا كـــلَّ قاصمـــة ولـــم نُعِـــدُّ ســـوى حـــالات منقصـــم

مهما دُعيتَ إلى الهيجاء قمتَ لـــــها تَرْمِى بأُسْـــــدٍ ، ويَرْمِـــى اللهُ بـــالرُّجُم

علـــى لوائـــك منـــهم كـــلُّ منتقـــم لله ، مســـتقتلٍ فـــــى الله ، معـــــتزم

مســـبحٍ للقـــــاء الله ، مضطـــــرمٍ شوقاً ، على سابحٍ كـــالبرق مضطـــرم

لو صادف الدهرَ يَبغْيِ نُقْلة ، فرمـــى بعزمه فـــى رحـــال الدهـــر لـــم يَـــرِم

بيضُ ، مفاليلُ من فعل الحروب بـــهم من أسُيفِ الله ، لا الهنديةِ الخُـــذُم (٢)

كم فى التراب إذا فتشتَ عن رجـــل مَنْ مات بالعهد ، أو من مات بالقســـم

لولا مواهبُ فى بعض الأنـــــام لمـــا تفاوت النـــاس فـــى الأقـــدار والقيـــم

شريعةٌ لـــك فجـــرتَ العقـــول بـــها عن زاخـــر بصنـــوف العلـــم ملتطـــم

---

(١) إضافة (آونة) وهى جمع أوان إلى (كل) خطأ ، والصواب : كل أوان.

(٢) مفاليل : الفل : الثلم فى السيف . والهندية : نسبة إلى الهند كـــانت مشـــتهرة بصنـــع السيوف . والخذم : جمع خذم ، ككتف السيف القاطع . بيض : أى سيوف بيض .

يلوح حول سنا التوحيـــد جوهرُهـــا كـــالحَلْى للســـيف أو كالوَشْـــى للعلـــم
غراء حامت عليها أنفسٌ ، ونُـــــهىً ومن يجد سلســـلاً مـــن حكمـــةَ يَحُـــم
نورُ السبيل يساس العـــالَمون بـــها تكفلـــت بشـــباب الدهـــــر والـــــهَرَم
يجرى الزمان وأحكام الزمان علـــى حُكْمٍ لها نـــــافذٍ فـــى الخلـــق مرتســـم
لما اعتلتْ دولةُ الإســـلام واتســـعت مشـــت ممالكـــه فـــى نورهـــا التَّمِـــم
وعلَّمـــتْ أمـــةً بـــــالقفر نازلـــــة رَعْىَ القيـــاصرِ بعـــد الشَّـــاءِ والنَّعَـــم
كم شيد المصلحون العـــاملون بـــها فى الشرق والغرب مُلْكاً بـــاذخ العِظَـــم
للعلم ، والعدل ، والتمدين مـــاعزموا من الأمور ، وما شـــدوا مـــن الحُـــزُم
سَرْعانَ ما فتحـــوا الدنيـــا لملتـــهم وأنهلوا الناس من سَلسالها الشَّـــبِم (١)
ساروا عليها هداةَ الناس ، فهْى بهم إلى الفـــلاح طريـــقٌ واضـــحُ العِظَـــم
لا يهدِمُ الدهرُ ركنـــا شـــاد عدلُـــهُمُ وحـــائطُ البغـــى إن تلمســـه ينـــــهدم
نالوا السعادة فى الدارين ، واجتمعوا على عميـــمٍ مـــن الرِّضـــوان مقتســـم
دع عنك روما ، وآثينا ، وما حوتـــا كلُّ اليواقيت فـــى بغـــدادَ والتُّـــوَم (٢)

---

(١) النهل : أول الشرب ، تقول : أنهلت الإبل إذا شربت من أول الـــورد . والسلســـال : الماء العذب . والشبم : البارد .

(٢) روما : هى المدينة المعروفة الآن بهذا الاسم ، قاعدة لمملكة إيطاليا . وكـــانت فـــى الزمن السابق قاعدة لمملكة الرومان المشهورة . وآثينا : قاعد مملكة اليونـــان الآن ، وكانت من أكبر مدن الأمة اليونانية فى العصور السابقة وبغـــداد : قـــاعدة الخلافـــة الإسلامية فى دولة بنى العباس ، والتوم : جمع تومة ، وهى الحبة من الفضة تعمـــل على شكل الدرة .

وخلِّ كسـرى ، وإيوانـا يُـدِلُّ بـه هوى على أثَـرِ النـيران والأُيُـم (١)
واترك رَعَمْسِيسَ . إن الملك مظـهرُه فى نهضة العدل . لا فى نهضة الَـهَرم
دارُ الشـرائع رومـا كلمـا ذُكِـرَتْ دارُ السلام لها ألقـت يـد السَّـلَم (٢)
مـا ضارعتها بيانـاً عنـد ملتَـأم ولا حكتْها قضـاءً عنـد مختصَـم (٣)
ولا احتوت فى طراز من قياصرهـا على رشيدٍ ومـأمون ، ومعتصـم (٤)
مِـنَ الذيـن إذا سـارت كتائبـهم تصرفوا بحـدود الأرض والتُّخـم (٥)
ويجلسـون إلـى علـم ومعرفـة فـلا يدانـون فـى عقـل ولا فَـهَم
يطاطئ العلمـاءُ الـهَامَ إن نبسـوا من هيبة العلم ، لا من هيبـة الحُكُـم
ويمطرون ، فما بالأرض من مَحَـل ولا بمن بات فوق الأرض من عُـدُم(٦)
خلائـف الله جلـوا عـن موازنـة فـلا تقيسـنَّ أمـلاك الـورى بـهم

---

(١) كسرى : لقب لكل من يلى ملك فارس . والنيران : لعله يريد بهم نيران فارس ، التى خبت ليلة مولد النبى - ﷺ - ، وكان ذلك أيام كسرى أنو شروان . والأيم : الدخان .

(٢) دار السلام : بغداد .

(٣) ملتام : مجتمع . مختصم : بمعنى المصدر : أى اختصام .

(٤) الطراز : علم الثوب ، والجيد من كل شئ ، ولا احتوت على رشيد الخ ، أى علـى أمثالهم فى الفضل والعدل والحزم . ورشيد : هو هارون الرشيد . ومأمون : هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العباسى المشهور ، ومعتصم : هو أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد ، ولى الخلافة يوم وفاة أخيه المأمون .

(٥) الكتائب : جمع كتيبة ، وهى الجيش ، والتخم : كعنق : جمع تخوم وهى الفواصل بين الأرضين من معالم الحدود .

(٦) المحل : الجدب ، والعدم : فقدان المال .

مَنْ فى البرية كالفـــاروق مَعْدَلَـــةً ؟ وكابن عبدِ العزيـــزِ الخاشـــعِ الحَشِـــم

وكالإمـــام إذا مـــا فـــض مزدَحمـــاً بمدمعٍ فى مـــآقى القـــوم مزدَحِـــم (١)

الزاخرُ العذبُ فى علـــم وفـــى أدب والناصر النَّدْبُ فى حرب وفى سَـلَم (٢)

أو كابن عفان والقـــرآنُ فـــى يـــده يحنو عليه كما تحنـــو علـــى الفُطُـــم

ويجمـــع الآىَ ترتيبـــاً ويَنْظِمـــها عِقْداً بجيد الليـــالى غـــيرَ منفصـــم ؟

جُرحان فى كبد الإسلام مـــا التأمـــا جُرح الشهيد،وجُرْحٌ بالكتاب دَمِـــى (٣)

ومـــا بـــلاء أبـــى بكـــر بمتـــهم بعدَ الجلائـــلِ فـــى الأفعـــال والخِـــدَم

بالحزم والعزم حاط الدينَ فى مِحَـــنٍ أضلتِ الحِلْمَ مـــن كـــهل ومحتلِـــم (٤)

وَحُدْنَ بالراشد الفاروق عـــن رَشَـــدٍ فى الموت ، وهْو يقينٌ غـــيرُ منبـــهم

يجـــادل القـــومَ مســـتَلاًّ مـــهنَّدَه فى أعظم الرُّسْل قدراً ، كيف لـــم يـــدُم

لا تعذلـــوه إذا طـــاف الذهـــولُ بـــه مات الحبيب، فَضَلَّ الصَّبُّ عـــن رَغَـــم

يا رب صلِّ وسلم مـــا أردتَ علـــى نزيـــل عرشـــك خـــيرِ الرُّسْـــل كلِّـــهم

---

(١) الإمام : هو الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . ومآقى العيون : أطرافها ممـــا يلى الأنوف ، وهى مجارى الدمع .

(٢) يقال : رجل ندب ، أى خفيف فى الحاجة سريع ظريف نجيب .

(٣) وجرح بالكتاب دمى : أى وجرح دمى به الكتاب ، وذلك أن قتله عثمان رضـــى الله عنه دخلوا عليه الدار ، وخبطوه بالسيوف وهو صائم ، والمصحف فى حجره ، وهـــو يقرأ فيه ، فوقع المصحف من يده وسال الدم عليه .

(٤) يشير إلى حروب الردة بعد وفاة النبى - ﷺ - وانتصاره على المرتدين .

مُحيى الليالى صـــــلاةً ، لا يُقَطِّعُـــها إلا بدمـــع مـــن الإشـــفاق منســـــجم

مسبحاً لكَ جُنْـــحَ الليـــل ، محتَمِـــلاً ضُرًّا من السُّهد، أو ضُرًّا مـــن الـــورم

رَضِّيةً نفسُـــــهُ ، لا تشـــتكى ســـأماً وما مع الحب إن أخلصت مـــــن ســـأم

وصـــلِّ ربـــى علـــى آلٍ لـــه نُخَـــبٍ جعلتَ فيـــــهمْ لـــواء البيـــت والحـــرم

بيضُ الوجوه،ووجهُ الدهر ذو حَلَـــك شُمُّ الأنوفِ، وأنفُ الحادثات حَمِـــى (١)

وأهِـــد خـــير صـــلاة منـــك أربعـــةً فى الصَّحْب. صحبتهم مرعية الحُـــــرَم

الراكبيـــن إذا نـــادى النبـــى بـــــهم ما هال من جلل . واشـــتد مـــن عمـــم

الصابرين ونفـــــس الأرض واجفـــةٌ الضاحكين إلى الأخطـــــار والقُحَـــم (٢)

يا رب ، هبت شعوبٌ مـــــن منيتـــها واستيقظت أمـــــم مـــن رقـــدة العـــدم

سعدٌ ، ونحسٌ ، ومُلْكٌ أنـــت مالكـــه تُديلُ مـــــن نِعَـــمٍ فيـــه ، ومـــن نِقَـــمِ

رأى قضـــاؤك فينـــا رأىِ حِكْمتـــــه أكرِمْ بوجـــــهك مـــن قـــاضٍ ومنتقـــم

فالطف لأجل رسول العـــــالمين بنـــا ولا تَـــزِدْ قومـــه خســـفاً ، ولا تَسِـــم

يا ربِّ ، أحسنتَ بدء المسلمين بـــــه فتمم الفضل ، وامنـــح حســـن مختتـــم

---

(١) الحلك (محركة) : شدة السواد . والشمم فى الأنف : ارتفاع القصبة وحسنها .

(٢) القحم : جمع قحمة بالضم ، ومن معانيها : الأمر الشاق لا يكاد يركبه أحـــد ، وهـــو المراد هنا .

(٤)

معالم النص الأدبى بين الشاعرين :

* أولاً : الأفكار

تحتوى بردة " البوصيرى " على ١٦٢ (مائة واثنين وستين) بيتاً من الشعر، بدأها الشاعر بالنسيب الرمزى الذى يوحى ظاهره أن الشاعر يتغزل فى محبوبة ما ، وقد سلك بذا مسلك معاصريه من أمثال : " ابن الفارض " (٥٧٦ - ٦٣٢هـ) - رحمه الله - ولكنه ينطوى - فى الحقيقة على غزل روحى مشبّع بأدوات الرمز التى تصرف المعنى إلى غير المراد منه .

فمطلع قصيدة " البوصيرى " :

أمِن تذكر جيران بذى سَلَم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

أم هبتِ الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضَمِ

ومطلع ميمية معاصره " ابن الفارض " :

هل نار " ليلى " بدت ليلاً بذى سلم أم بارقٌ لاح فى الزوراء فالعلم

أرواحَ نعمانَ هَلاً نَسْمَةٌ سَحَراً وماءَ وَجْرَةَ هلاً نَهْلَةٌ بفم (١)

فكل واحد من الشاعرين يتغزل فى مطلع قصيدته ، وإن صرح " ابن الفارض " باسم محبوبته " ليلى " إلا أنه يجعل ذلك مدخلاً رمزياً يصل به إلى هدفه من القصيدة .

والملحوظ فى تشبيب الشاعرين أنه يتعلق بقوة بالمعالم العربية كالأودية والجبال والمياه ، وكلها أمكنة تتصل بالبيئة الحسية التى عاشها النبى - ﷺ -

---

(١) ديوان ابن الفارض ص ٧٤ ، ٧٥ مكتبة زهران بمصر د.ت . والأرواح : جمع : ريح ، وهى منادى محذوف حرف النداء ، ونعمان : وادٍ ، وجْرة : موضع ، والنهلة : الشربة .

وقضى حياته كلها : يرتع فيها صبياً ، ويتعبد ويدعو إلى الله عز وجل نبيـــاً ، ويجاهد أعداءه غازياً فى سبيل الله ، وكل ذلك بمثابة التمهيد أو تهيئـــة الجـو النفسى لمدحه – ﷺ – .

ثم يتخلص " البوصيرى " من مطلعه الغزلى ليتحدث عن النفس وهواها ، ويحذر من انحرافها ومن تسليم القياد لها ، فإنها إن لم تورد صاحبـــها مـوارد الهلاك ، تصمه بالمعايب التى تبقى سبةً فى جبينه مدى الدهر .

وقد ابتدأ الشاعر – رحمه الله – حديثه عن النفس بقوله :

إنى اتهمت نصيح الشيب فى عَـــذَلٍ والشيب أبعد فى نصـــح عـــن التـــهم

فإن أمَّارتى بالســـوء مـــا اتعظـــت من جهلها بنذيـــر الشـــيب والـــهرم

وقد استغرق حديث الشاعر عن النفس وأهوائها سبعة عشـــر بيتـــاً مـــن القصيدة ، بما يدل على قوة نزعة " البوصيرى " الدينية ، وصدق عاطفة التوبة والندم على ما بدر منه فى الشطر الأول من حياته .

وينصح الشاعر بعدم موافقة النفس فى رغباتها ، وعدم تحقيق مطالبها ؛ لأنها لا تشبع أبداً ، وبين أن خير ما تساس به هو كسر شهوتها بالجوع وفطمها عن الطعام كما يُعَوَّد الطفل على ترك الرضاع ، وهى نظرة صوفية ، لعـــل " البوصيرى " أفادها من مخالطته بعض رموز الصوفيـــة أو أقطابـــها ، فتـــأثر بطبائعهم ورأى فيها النفع فى صرف النفس عن هواها .

يقول فى هذا المعنى :

واخش الدسائس من جوع ومن شـبع فـــرب مخمصـــة شـــر مـــن التخـــم

والنفس كالطفل إن تهمله شب علـــى حب الرضـــاع وإن تفطمـــه ينفطـــم

ثم ذكر من دواعى الندم أنه اقتصر على أداء الفرض ، ولم يـــزد علـــى ذلك ، وهى رتبة صغيرة لا يرقى بها العبد إلى درجة القرب والاصطفاء :

ولا تـــزودت قبـــل المـــوت نافلـــــة ولم أُصَلِّ سوى فـــرض ولـــم أَصُـــمِ

ثم أخذ الشاعر فى مدح النبى – ﷺ – وتصوير شخصيته فى أبيات غاية فى الجمال والقوة يقول :

ظلمتُ سُنَّةَ من أحيـــا الظـــلام إلـــى أنِ اشتكتْ قدمـــاه الضُّـــرَّ مـــن وَرَمِ

وشدَّ من سَـــغَبٍ أحشـــاءه وطـــوى تحت الحجـــارة كَشْـــحاً مُـــتْرف الأدم

وتحدث عن آيات القرآن الكريم ، وبين ما فيها من إعجاز يفحـــم بلغـــاء العرب وأساطين البيان . ويردهم عن التحدى عاجزين عن الإتيان بمثل أصغـــر آية منه يقول " البوصيرى " :

لم يمتحِنَّا بمـــا تعيـــا العقـــولُ بـــه حرصاً علينا فلم نَرْتَـــبْ ولـــم نَـــهِمِ

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يُـــرَى فى القرب والبعد فيه غـــيرُ منفحـــم

وتحدث عن " الإسراء والمعراج " وما وقع فى تلك الليلة للنبـــى – ﷺ – من معجزات وما رأى من آيات بينات ، وما عاد به من نفحات من تلك الرحلة العلوية المباركة ، ومن شعره فيها قوله :

سريتَ من حَـــرَم ليـــلا إلـــى حـــرم كما سرى البدر فى داج مـــن الظُّلَـــم

حتى وصل إلى قوله :

فَحُزْتَ كـــلَّ فَخَـــار غـــيرَ مُشْـــتَرَك وَجُـــزْتَ كـــلَّ مقـــام غـــيرَ مُزْدَحَـــم

وجَلَّ مقدارُ ما وُلِّيـــتَ مـــن رُتَـــب وعَزَّ إدراكُ مـــا أُولِيـــتَ مـــن نِعَـــم

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن شجاعة النبى – ﷺ – وجهاده فى ســـبيل الله معجباً بشجاعته وبسالة أصحابه – رضى الله عنهم – ، وكيف أن أعداءهـــم

انهزموا من هول ما رأوا من تضحيات ومواقف فدائية لا مثيل لها فى ساحات القتال ، يقول الشاعر :

هم الجبال فسل عنهم مُصادِمَهم ما ذا رأى منهمُ فى كل مصطَدَم

كأنهمْ فى ظهور الخيل نبتُ رُبَاً من شدة الحَزْم لا من شدة الحُزُم

طارت قلوبُ العدا من بأسهم فَرَقاً فما تُفَرِّقُ بين البَهْم والبُهَم

ومن تكن برسول الله نصرتُه إن تَلْقَهُ الأسْدُ فى آجامها تَجِم

ثم ختم قصيدته بالاستغفار والندم والمناجاة ومراجعة النفس وردها عن غوايتها إلى الوقوف بباب الرجاء والتماس لطف الله وعفوه :

لعل رحمةَ ربى حين يَقسِمها تأتى على حسب العصيان فى القِسَم

يا ربِّ واجعل رجائى غيرَ منعكس لديكَ واجعل حسابى غيرَ منخرِم

والطف بعبدك فى الدارين إنَّ له صبرا متى تدعُهُ الأهوالُ ينهزم

وأما نهج البردة لأمير الشعراء " شوقى " فتحتوى على ١٩٠ (مائة وتسعين) بيتاً من الشعر ، بدأها الشاعر – رحمه الله – بالتشبيب فقال :

ريمٌ على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

ثم ضمَّن هذا المطلع الغزلى شيئاً من الحكم وحديث النفس قائلاً :

لما رنا حدثتنى النفس قائلة يا ويح جنبك، بالسهم المصيب رُمِى

جحدتُها ، وكتمتُ السهم فى كبدى جُرحُ الأحبة عندى غيرُ ذى ألم

أو قوله :

يا نفس ، دنياك تخفى كل مبكية وإن بدا لك منها حسنُ مبتسم

فُضَّى بتقواك فاهاً كلما ضحكت كما يُفَضُّ أذى الرَّقشاءِ بالثَّرَم

ثم تخلص من حديث النفس – الذى طال بعض الشئ – إلى المدح فـــى خير البرية – ﷺ – قائلاً :

لزمت باب أمـــير الأنبيـــاء ، ومـــن يُمْسِـكْ بمفتـــاح بـــاب الله يغتنـــــم

وتَلمُّ أثناء هذا المديح بأطراف من صفات الرسول وإشادة مـــن الشـــاعر بسمو منزلته – ﷺ – وكرم أصله وشرفه فى قومه يقول الشاعر :

نُمُوا إليه، فزادوا فى الورى شـــرفاً ورُبَّ أصل لفرع فـــى الفخـــار نُمِـــى

وعرج " شوقى " على مولده وما صاحب ذلك من معجزات ، ثم تحـــدث عن جهاد الصحابة وبلائهم فى سبيل الله عز وجل وحكمة النبـــى فـــى غـــزوه وجهاده يقول الشاعر :

علمتهم كـــل شـــئ يجـــهلون بـــه حتى القتال ومـــا فيـــه مـــن الذَّمَـــم

دعوتـــهم لجـــهادٍ فيـــه ســـؤددهم والحربُ أسُّ نظـــام الكـــون والأُمَـــم

ثم يتحدث عن فضل الشريعة الإسلامية وسماحتها قائلا :

شريعة لـــك فجَّـــرتَ العقـــول بـــها عن زاخر بصنـــــوف العلـــم ملتطـــم

يلوح حول سنا التوحيـــد جوهرُهـــا كالحَلْى للســـيف أو كالوَشْـــى للعلـــم

غرَّاءُ حامت عليها أنفس ، ونُـــــهىً ومن يجد سلسلاً مـــن حكمـــة يَحُـــم

ولا ينسى شوقى ذكر مآثر الخلفاء وحاملى مشـــاعل الدعـــوة إلـــى الله من الصحابة الكرام – رضى الله عنهم وتابعيهم – ومن ذلك قوله :

خلائـــف الله جلـــوا عـــن موازنـــة فـــلا تقيســـنَّ أمـــلاك الـــورى بـــهمِ

مَنْ فى البرية كالفـــاروق مَعْدَلَـــةً ؟ وكابن عبد العزيز الخاشـــع الحَشِـــم

وكالإمـــام إذا مـــا فـــض مزدَحمـــاً بمدمع فـــى مـــآقى القـــوم مزدَحِـــم

أو كابن عفانَ والقــرآنُ فــى يــده يحنو عليه كما تحنــو علــى الفُطُــم

ومــا بــلاء أبــى بكــر بمتَــــهم بعد الجلاتــل فــى الأفعــال والخِــدَم

ويختم الشاعر نهجه بالدعاء للمسلمين أن يلطف الله بهم ويكشف عنـــهم الخسف والاستبداد والظلم :

فالطف لأجل رسول العــالمين بنــا ولا تــزد قومــه خســفا ، ولا تسِــم

يا رب ، أحسنت بدء المسلمين بـــه فتمم الفضل ، وامنح حســن مختتــم

ويستطيع القارئ أن يلحظ اشتراك الشاعرين " البوصيرى وشوقى " فــى بعض المعانى مع احتفاظ كل منهما بلغته وطريقته فى الأداء والتعبـــير ، وإذا كان الشاعران قد اشتركا أو اتفقا فى بعض المعانى ، فإن كلاً منهما قد انفـــرد عن الآخر بمعان وأفكار لم يأت بها نظيره ، وسنذكر شـــيئاً مــن هــذا فــى الصفحات التالية :

موازنة بين الشاعرين :

ابتدأ الشاعران قصيدتيهما بالتشبيب ، ليهيئا النفس للســـماع والتلقـــى ، ويشعلا نار العاطفة فى قلب السامع ونفسه .

لكن " شوقى " أكثر فى هذا المطلع الغزلى عن " البوصـــيرى " ؛ فعلـــى حين نجد التشبيب يستغرق عند " البوصيرى " أحد عشر بيتاً منذ بدء القصيـــدة منتهياً عند قوله :

عدّتـــك حـــالىَ لا سِـــرّى بمســـتتر عـــن الُوشـــاة ولا دائـــى بمنحســـم
مَحَّضْتَنِى النُّصْحَ لكنْ لستُ أســـمعه إنَّ المحب عـــن العُـــذَّال فـــى صَمَـــم

نجد ذلك عند " شوقى " يستغرق أربعة وعشرين بيتاً منذ مطلع القصيـــدة منتهياً عند قوله :

لم أغشَ مغناكِ إلا فى غضون كِـــرىً مغنـــاك أبعـــد للمشـــتاق مـــــن إرَم

فالبوصيرى طوى أموراً كثيرة فى تشبيبه ، جاء " شوقى " بعده ففصلـــها ووضحها مثل قوله :

يا بنت ذى اللَّبَـــدِ المحمـــىِّ جانبُـــه ألقاكِ فى الغاب،أم ألقاكِ فى الأطُـــم ؟
ما كنت أعلم حتـــى عـــنَّ مســـكنُه أن المنى والمنايـــا مضـــرِب الخِيَـــم
مَن أنبت الغصن من صمصامةٍ ذكـــر وأخرج الرِّيم مـــن ضِرغامـــة قـــرم

وحين انتقل الشاعران إلى الحديث عن النفس نرى فى ذلك عكـــس مـــا رأيناه فى المطلع الغزلى ، حيث أطال " البوصيرى " بعض الشئ عن "شـــوقى" فى حديث النفس وأهوالها ، فتحدث عنها حديثاً يبرز خفاياها ويفضح مســـتورها ويحذر منها مشدداً فى التحذير ، على حين نجد شوقى يوجز فى هذا الأمر ولـــم

يأت بما أتى به صاحبه ولم يقفنا على حقيقة النفس وطبائعـــها بالشـــكل الـــذى عرضه الآخر .

والبوصيرى لم يكتف بعرض أحوال النفس الإنسانية وطبائعها فحســـب، بل وجّه النصح للإنسان المسلم أن يخالفها ولا يركن إلى رغباتها ، ولم يفعـــل مثل ذلك " شوقى " يقول " البوصيرى " :

فلا تَرُمْ بالمعاصى كســـر شـــهوتها إن الطعـــام يُقَـــوّى شـــهوة النَّـــهِم

ويقول أيضاً :

وخالف النفس والشيطان واعصمـــها وإن هما محَّضـــاك النصـــح فاتَّـــهِمِ

و" البوصيرى " بعد ذلك يتحـــدث عـــن اســـتغفاره وتوبتـــه وندمـــه ، و " شوقى " يتحدث عن أمله فى الله ورجائه فى عفوه .

وينتقل الشاعران إلى المدح فـــالبوصيرى يبـــدأ مدحـــه للنبـــى - ﷺ - بقوله :

ظلمتُ سُنَّةَ من أحيـــا الظـــلام إلـــى أنِ اشتكتْ قدمـــاه الضُّـــرَّ مـــن وَرَم

و " شوقى " يبدأ مدحه بقوله :

لزمت باب أمـــير الأنبيـــاء ، ومـــن يُمْسِـــكْ بمفتـــاح بـــاب الله يغتنـــم

ومن المدح حديث الشاعرين عن " الإسراء والمعراج " ، وهنا نلمس فـــى " البوصيرى " صدق إيمانه وقوة يقينه وشروق باطنه وشدة محبته للنبـــى - ﷺ - فيقول :

سريتَ من حَـــرَم ليـــلا إلـــى حـــرم كما سرى البدر فى داج مـــن الظُّلَـــم

ويصل فى وصف هذا الحادث العظيم إلى قوله :

خفضتَ كلَّ مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثلَ المفرد العلم

أما " شوقى " فيقول فى وصف أخاذ وتصوير يملأ النفس إشراقاً وبهجة ، وديباجة مشرقة تتلألأ كالنور فى جبين المؤمن صادق الإيمان :

أسرى بك الله ليلاً ، إذ ملائكُه والرُّسل فى المسجد الأقصى على قدم
لما خطرت به التفوا بسيدهم كالشهب بالبدر ، أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كلُّ ذى خطر ومن يفز بحبيب الله يأتمِم
جُبْت السموات أو ما فوقهن بهم على مُنَوَّرَةٍ دريةِ اللُّجُم

وفى تصوير " شوقى " للبراق خطآن :

الأول : حين صور البراق تصويراً حسياً بأنها درية اللجم ؛ إذ هذا وصف لا قيمة له حين يلحق بدابة تجوب السموات وعلى متنها أشرف الخلق ، وهى دابة مأمورة معدة لهذا الغرض ، فهذا الوصف المصنوع ليس فيه فخار ولا مكرمة للنبى المختار - ﷺ - ؛ إذ الجوهر هو محل الافتخار وليس الأعراض والقشور .

والثانى : خطأ تاريخى ، ما كان لمثل شوقى فى ثقافته أن يقع فيه ؛ إذ من المعلوم أن النبى - ﷺ - ركب البراق فى إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أما عروجه إلى السموات العلا فلم يكن على البراق ، لكن شوقى جعله وسيلته فى هذا وذاك حين قال :

جُبْت السموات أو ما فوقهن بهم على مُنَوَّرَةٍ دريةِ اللُّجُم (١)

---

(١) راجع: شرح نهج البردة للشيخ سليم البشرى ص ٧٧ مكتبة الآداب بمصر سنة ١٩٩٩م .

أو قوله :

حتى بلغت سماءً لا يُطَار لها على جناح ، ولا يسعى على قدم

فكل من " شوقى " و " البوصيرى " ، قد تعرضا لصفات المدح فى رسول الله - ﷺ - حسية ومعنوية ، فإن أجمل أحدهما فى بعض الموضوعات أطال فى بعضها الآخر ، وذلك بحسب المقام . ولكن " شوقى " - على العموم - يزيد عن " البوصيرى " ويتميز بأمور منها :

١- اعترافه بالضعف أمام البوصيرى ، وفى ذلك من التواضع لصاحب البردة ما يرفع من شأن " شوقى " ؛ لأن من تواضع لله رفعه الله . يقول شوقى :

المادحون وأربابُ الهوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذى القَدم

مديحةٌ فيكَ حب خالص وهوى وصادق الحب يملى صادق الكلم

الله يشهد أنى لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العرم

وإنما أنا بعض الغابطين ، ومن يغبطْ وليَّكَ لا يُذْمَم ، ولا يُلَم

هذا مقام من الرحمن مقتبس ترمى معابتَهُ سحبانَ بالبَكم

٢- وفى حديث " البوصيرى " عن صفات النبى - ﷺ - لا يذكر أن طلبه مجاب من قبل الله عز وجل ، ولكن " شوقى " يذكر ذلك فالبوصيرى يقول :

(نبينُا) الآمرُ الناهى فلا أحدٌ أبرَّ فى قول " لا " منه أو " نعم "

وشوقى يقول :

إن قلت فى الأمر:"لا"أو قلت فيه:"نعم" فخيرة الله فى " لا " منك أو " نعم "

فالبوصيرى يذكر أن النبى - ﷺ - هو الآمر فى الأمور كلها ، فقوله هو الحاسم ، ينزل عليه أصحابه يأتمرون به وينتهون عنده ، وفى ذلك إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(سورة النساء ٦٥) ، وهو بار بالمؤمنين فى أمره ونهيه لا يدانيه فى هذا البر أحد ، و " شوقى " يأتى بالمعنى السابق نفسه ولكن يزيد على صاحبه حين يجعل أوامر النبى - ﷺ - ونواهيه تمضى بموافقة الله له فى أمره ونهيه ، فإذا قال " نعم " يوافقه الله ، وإذا قال " لا " يوافقه الله ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علَّمه شديد القوى .

٣- أوجز " البوصيرى " فى حديثه عن " المسيح " عليه السلام ، فجاء ذكره فى بردته فى بيت واحد هو :

دعْ ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وحتى هذا البيت المفرد جاء مجملاً فى مضمونه فقوله : " دع ما ادعته النصارى فى نبيهم " كلام عام يحتاج إلى تفصيل .

لكن شوقى أطنب فى ذكر عيسى عليه السلام فذكر كثيراً من صفاته ذكراً واضحاً لا يحتاج إلى إعمال فكر أو مراجعة علم ، فتحدث عن بعض معجزاته وفند بعض الافتراءات التى قيلت عنه وذكر صفات أنصاره وحوارييه .

يقول شوقى :

أخوك عيسى دعا ميْتاً ، فقام له وأنت أحييت أجيالاً من الرِّمم

وفى موضع آخر يقول :

جلَّ المسيح ، وذاق الصَّلْبَ شانِئُه إن العقاب بقدر الذنب والجُرُم

ويتحدث عن المسيحية وما خاضته من معارك مـــع جبهـــة الشـــرك ، ونصرة الله عز وجل لها فيقول :

سل المسيحية الغراء : كم شـــربت بالصاب من شـــهوات الظـــالم العلـــم
طريدة الشرك ، يؤذيها ، ويوســـعها فى كل حيـــن قتـــالاً ســـاطع الحـــدم
لولا حمـــاة لـــها هبـــوا لنصرتـــها بالسيف، ما انتفعت بالرفق والرَّحِـــم
لولا مكانٌ لعيســـى عنـــد مرســـله وحرمة وجبـــت للـــروح فـــى القِـــدَم
لَسُمِّرَ البدنُ الطهرُ الشـــريفُ علَـــى لوحين، لم يخش موذيه، ولـــم يجـــم

ويتحدث " شوقى " عن أشياع عيسى عليه السلام أو أنصـــار المســـيحية والمبشرين بها فى عصرنا فيقول :

أشياعُ عيسى أعـــدوا كـــلَّ قاصمـــة ولـــم نعـــد ســـوى حـــالات منقصـــم

فشوقى – رحمه الله – يبين أن المبشـــرين بالمســـيحية أعـــدوا عدتـــهم فصنعوا الأسلحة الفتاكة وتفوقوا فى مجال القتال وتجرأوا على ديـــار الإســـلام بما أوتوا من قوة وعتاد فى الوقت الذى قعد فيه أهل الإسلام عن هـــذا الـــهدف رغم أن دينهم يأمرهم بـــإعداد العـــدة وأخـــذ الاســـتعداد ، يقـــول تعـــالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِـــهِ عَـــدُوَّ اللَّـــهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴾ (سورة الأنفال ٦٠) .

ومن هنا يتضح أن " شوقى " فاق البوصيرى فأطنب فى ذكـــر المســـيح ودعوته وربط الماضى بالحاضر ، على خلاف البوصيرى الذى أوجز فى ذكره إلى حد بعيد .

٤- فى حديث الشاعرين عن القرآن زاد " البوصيرى " عن " شوقى " فى عدد الأبيات فاستغرق حديث الأول عنه سبعة عشر بيتاً من قصيدته على حين

جاء ذكر القرآن الكريم عند الأخير فى ثلاثة أبيات فقط ، ولكن للإنصاف نقول : إن " شوقى " رغم إجماله جاء بأبيات أحكـــم نســجاً ، وأســلس تعبيراً ، ولكن ذلك لا يجعله يفوق " البوصيرى " فى ذكر معانى القــرآن الكريم ؛ فقد يعد إيجاز شوقى تقصيراً ؛ حيث أطال فى مواضع لا تستحق الإطالة ، والقرآن هو دستور المسلمين فكان الأجدر به أن يوليــه قــدراً كبيراً من عنايته ؛ وذلك لما فيه من آيات وعبر وقصص ومعجزات .

وبالمقارنة بين بيتين من الشعر أحدهما لشــوقى والآخــر للبوصــيرى يمكن إدراك الفرق بين الشاعرين ، يقول " البوصيرى " فى الإشــادة بمعــانى القرآن :

فمــا تَطــاَولُ آمــالُ المديــح إلــى ما فيه من كــرم الأخــلاق والشِّــيَم

و " شوقى " يقول فى المعنى نفسه :

يكــاد فــى لفظــة منــه مشــرفة يوصيك بالحق ، والتقــوى وبــالرحم

فمدح " البوصيرى " لآيات القرآن الكريم أقرب إلى مدح الأشــخاص ؛ لكن مدح " شوقى " يركز على نواحى إعجازه اللفظى والقيمى ، حيث تعطيــك لفظة واحدة منه معانى كثيرة ، وتقفك على وصايا عديدة ، وهو قمة الفصاحــة ومنتهى البيان ، ولذا فقد تحدى المولى عز وجل فصحــاء العــرب أن يــأتوا بكلمات منه أو أحرف فعجزوا وأعياهم ذلك كل الإعياء .

لقد أعطى " شوقى " للمديح من روحه وثقافته وفكره ما جعله يقف علــى أعظم المعانى ، وأجمل الألفاظ وأرق الأساليب ، وهى ميزة قد لا تتحقق فــى غيره ممن مدحوا النبى - ﷺ - قبله أو بعده ، مع الاحتفاظ لكل واحــد مــن السابق واللاحق بقدره وجهده وإخلاصه .

٥- أتى " شوقى " فى مدحه للنبى - ﷺ - ببعض ملامح العصر من ذكر البلدان وأسماء الملوك من عجم ومن عرب ، ولكن " البوصيرى " لم يفعل ذلك : يقول " شوقى " :

دع عنك روما ، وآثينا ، وما حوتا كلُّ اليواقيت فى بغداد والتُّوَم
وخلِّ كسرى ، وإيوانا يدِلُّ به هوى على أثر النيران والأيم
واترك رعمسيسَ . إن الملك مظهرُه فى نهضة العدل . لا فى نهضة الهرم
دارُ الشرائع روما كلما ذُكِرَتْ دارُ السلام لها ألقت يد السَّلَم
ما ضارعها بياناً عند ملتَأم ولا حكتْها قضاءً عند مختصَم
ولا احتوت فى طراز من قياصرها على رشيدٍ ومأمون ، ومعتصم

فقد خلع " شوقى " على معانيه من ثقافته التاريخية ما طبعها بطابع عصرها ، وجعل القارئ فى معايشة تامة لأحداث عصر النبوة وما صاحبه أو أعقبه من مآثر للعرب فى عصور الازدهار ، وهى مقارنة لطيفة تضيف إلى المدح طرافة وتزيده قوة .

٦- انفرد " شوقى " عن " البوصيرى " بالتطرق إلى أغراض لم تخطر لصاحبه على بال ولم ترد له على خاطر ؛ حيث صور فيها سمات عصره وروح زمنه ، كما رد على شبهات أثيرت حول الإسلام ودحض مفتريات وجهت إلى الدين الإسلامى مثل فرية انتشار الإسلام بحد السيف ، فجاء دفاع " شوقى " عن الإسلام فى أسلوب قوى متين وحجج دامغة مفحمة استقى مصادرها من تاريخ الأمم والإسلام ، ومن فلسفة الحياة التى خبرها " شوقى " وثقافته التى أحاط بها وتعلمها وجمع فيها بين ثقافة الشرق وتراثه وثقافة الغرب وحداثته .

وقد عرض " شوقى " كل ذلك عرضاً طريفاً شيقاً فيه جمال وسحر وبيان ، ومن هذا التفرد فى الأغراض والأفكار ما جاء به شوقى من حديث عن الشريعة المحمدية وكيف أن مجيئها للدنيا كان حتماً وضرورة فى الوقت الذى عمت فيه الفوضى وانتشر الظلم وحل الفساد أرجاء الكون ، بحيث أضحى الكون فى أمس الحاجة إلى شرع تشرق به جنباته ونور يمحو ظلام الجهل ويبدد خرافات الوهم ويرسى الحب والعفاف والطهر .

يقول " شوقى " :

أتيتَ والناس فوضى لا تمرُّ بهم ... إلا على صنم ، قد هام فى صنم
والأرضُ مملوءةٌ جوراً ، مسخرة ... لكل طاغية فى الخلق محتكم
مسيطِرُ الفرسِ يبغى فى رعيته ... وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصم عَمِ
يعذبان عباد الله فى شُبَهٍ ... ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم ... كالليث بالبُهْم ، أو كالحوت بالبَلَم

ودافع " شوقى " عن الإسلام ورد شبهة انتشاره بالسيف فقال :

قالوا : غزوت ، ورسلُ الله ما بعثوا ... لقتل نفس ، ولا جاءوا لسفك دم
جهل ، وتضليل أحلام ، وسفسطةٌ ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كلُّ ذى حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم
والشرُّ إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعاً ، وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء : كم شربت ... بالصاب من شهوات الظالم الغلِم
طريدة الشرك ، يؤذيها ، ويوسعها ... فى كل حين قتالاً ساطع الحدم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها ... بالسيف، ما انتفعت بالرفق والرُحِم

ومما انفرد به " شوقى " ذكره لآلات الحرب ومعداتها ، ووصفه لساحات القتال وما يقع فيها من تناحر ، وهى خاصية من خواصه فى نهج البردة لم نجدها عند " البوصيرى " . مما تقدم يتضح لنا أن " شوقى " قلد "البوصيرى" فى نهجه ، حيث نظم قصيدته – ابتداءً – على وزن بردة البوصيرى ورويها وأفاد منه فى كثير من معانيها ، ولكنه أتى بأشياء لم يأت بها البوصيرى ، وقد أشرنا إلى شئ منها فيما سبق ، وقد كان شوقى فى بعض الأحيان مجملاً بينما كان البوصيرى مفصلاً ومسهباً كما رأينا من حديثهما عن القرآن الكريم ، وكان شوقى مسهباً فى أمور أوجز فيها البوصيرى كما رأينا من ذكرهما المسيح عليه السلام حيث لم يزد البوصيرى فى ذكره عن بيت واحد ، بينما شوقى ذكره فى مواطن كثيرة مفصلاً القول فيه وفى دعوته ورادًا شبهة الصلب عنه .

ولسنا فى هذه المقارنة نريد أن نفاضل بين الشاعرين أو نعلى من شأن أحدهما عن الآخر ، ولكن طبيعة الدراسة الأدبية تقتضى قراءة الشاعرين وتتطلب الوقوف على بعض الوفاق أو الاختلاف فى التعبير والصياغة وطريقة العرض وما يلزم ذلك من انعكاس الثقافة والبيئة على كل منهما .

ثانياً : الأسلوب

البردة ونهجها من بحر البسيط التام ، وأجزاؤه هى : مستفعلن فاعلن مستفلعن فعلن ، وهو وزن متوافق مع التجربة التى تأثر بها الشاعران ، وإن كان لدىً شئ من التحفظ على العلاقة بين الوزن والمعنى ، فكل بحر – من وجهة نظرى – يصلح لكل تجربة ولست أوافق من يذهب إلى تحديد طابع نفسى لكل وزن أو مجموعة من الأوزان الشعرية (١) فإن النغمة المرتفعة قد تناسب الغضب والفرح على السواء،وقد تكون بعض حالات الغضب والفرح

---

(١) التفسير النفسى للأدب – د / عز الدين إسماعيل ص ٥٨ ، ٥٩ .

ذات نغمة منخفضة ، فقد يكون الشاعر هادئاً ويعبر عن غضبه بنغمة عالية ، وقد يكون ثائراً هائجاً ويعبر عن غضبه وهيجانه بنغمة منخفضة ، وقد تلعب طريقة القراءة دوراً بارزاً فى الارتفاع بالنغمة أو انخفاضها ، " فليس هناك بحر أليق لنظم الرثاء أو المدح أو الفخر ، ولكن نظم الموضوع الواحد فى بحور مختلفة يجعل لكل تجربة شكلها وإيقاعها المتميز " (١) .

وقد رتب " البوصيرى " أفكار قصيدته ترتيباً منسقاً فى أسلوب رصين وألفاظ سهلة المأخذ ، فحين تقرأ البردة ترى أنها مبوبة الأفكار والمعانى ، فتستطيع أن تضع أفكاراً وعناوين لكل مجموعة من الأبيات لما بينها من وحدة وترابط ، ولكن حين تقرأ نهج البردة ترى الأمر على خلاف ذلك ، فشوقى قد تتداخل عنده المعانى والأفكار فيحدثك عن فكرة ، ثم ينتقل منها إلى فكرة أخرى ، ثم يعود – فى بعض الأحيان – إلى الفكرة التى تركها ، فيحدث بذلك نوعاً من تخلخل البناء فى النص الشعرى ، والتفكك فى العرض والترتيب ، فليس للمنطق سلطان على النص ، ولا للحوادث تعاقب فى العرض والسرد ، ومن قبيل ذلك : وصفه لغار حراء ، فقد استغرق عدة أبيات من قصيدته ، حتى إذا مضيت معه فى قصة الغار واستقر الأمر فى ذهنك نقلك فجأة إلى وصف معجزات النبى - ﷺ -، ثم يعود بعد ذلك إلى حديث الغار يقول شوقى:

سائل حراء،وروحَ القدس: هل علما مصون سر عن الإدراك منكتم
كم جنة وذهاب شرفت بهما بطحاءُ مكة فى الإصباح والغسم
ووحشةٍ لابن عبد الله بينهما أشهى من الأنس بالأحباب والحشم
يسامر الوحى فيها قبل مهبطه ومن يبشر بسيمَى الخير يتَّسِم

---

(١) موسيقى الشعر العربى دراسة فنية وعروضية – د / حسنى عبد الجليل يوسف ، ص ٢٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م .

ثم يثب من وصف الغار إلى المعجزات قائلاً :

لما دعا الصحبُ يستسقون من ظمأ فاضت يداه من التسنيم بالسَّنِم

وظللته ، فصارت تستظل به غمامةٌ جذبتْها خِيرَةُ الدَّيَم

محبةٌ لرسول الله أُشَرِبَها قعائدُ الدير ، والرهبانُ فى القمم

ثم يعاود الحديث عن الغار قائلاً :

ونودى : اقرأ تعالى الله قائلها ام تتصلْ قبلُ مَنْ قيلت له بفم

ويختار " البوصيرى " الألفاظ السهلة ، حيث يلاحظ أن البردة لها جمهور عريض من عامة الناس وكذا من المثقفين ، ولعل السر فى ذلك ما تمتاز به من سهولة الألفاظ وموافقتها للذوق العام وكأن " البوصيرى " كان يخاطب بها طوائف المجتمع كلها ، فلم يخص بها علية القوم أو خواص المثقفين والعلماء ، وهذا على خلاف " شوقى " فقد جاءت ألفاظه تخاطب فئة المثقفين ، حيث ينتقى الألفاظ الجزلة الرصينة القوية التى تناسب طائفة معينة هى طائفة المثقفين ، ومن هنا كان قارئ البردة يروقه معانيها المتناسقة وألفاظها السهلة وأما من يقرأ النهج فيعجبه فصاحة الشاعر وجزالة ألفاظه ، وهى صفات تروق بالدرجة الأولى البلاغيين وذوى الثقافة اللغوية ، حيث يقفهم شوقى على دروس فى بلاغة الأسلوب وفصاحة اللفظ وقوة السبك وجمال العبارة ، وإن كان البوصيرى قد تفوق على شوقى فى أحيان كثيرة ، ومن مآخذ الأسلوب على الشاعرين : استعمال البوصيرى مصطلحات العلوم فى شعره كما نرى فى قوله :

خفضتَ كلَّ مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثلَ المفرد العلم

فقد أفسد هذا البيت ما فيه من تورية باستخدام اصطلاحات النحـــاة مـــن خفض ، وإضافة ، ونداء ، ورفع ، ومفرد ، وعلم ، وما إلى ذلك .

وأما شوقى فقد أفرط إلى حد غير مقبول فى استخدام المحسنات البديعيـــة ومنها قوله :

ذُكِرْتَ باليتم فـــى القـــرآن تكرمـــة وقيمة اللؤلـــؤ المكنـــون فـــى اليُتَـــم

ففيه حسن تعليل ، وكذا قوله :

لقبتموه أميـــنَ القـــوم فـــى صغـــر ومـــا الأميـــنُ علـــى قـــول بمتـــهم

أو قوله :

لقـــد أنلتـــك أذنـــاً غـــيرَ واعيـــة ورُبَّ مُنْتَصِتٍ والقلـــبُ فـــى صمـــم

ففيهما طباق بين أمين ومتهم ، وبين منتصت وصمم .

ومثلهما قوله :

يا ناعس الطرف، لاذقت الهوى أبـــداً أسهرتَ مُضْنَاكَ فى حفظ الهوى فنـــم

فبين (أسهرت) و (نم) طباق .

وقد استخدام الجناس كثيراً ومنه قوله :

يَفْنَى الزمانُ . ويبقى من إســـاءتها جُرحٌ بـــآدمَ يبكـــى منـــه فـــى الأَدَم

فبين (آدم) و (أدم) جناس .

ولاشك فى أن هذه المحسنات البديعية وإن أعطت الشكل مظهراً جميـــلاً إلا أنها – بالإكثار منها – تصرف القارئ عن ملاحظة المعانى الطريفة إلـــى الشكل الحسن والرواء الجميل واللفظ الرقيق ، وهذا فى حد ذاته يفقـــد النـــص قدراً كبيراً من أهميته .

ثالثاً : العاطفة والخيال والموسيقى

لاشك فى أن القصيدتين تتبعان من مصادر واحدة ، أو – على الأرجح – مصادر متقاربة ؛ إذ الباعث عليهما واحد ، فالبوصيرى قضى شطراً كبيراً من حياته فى غفلة وتقصير فى أمر الطاعة والعبادة ، وقدّر له فى أخريات عمره أن يصاب بمرض كاد أن يفضى به إلى الموت ، أقعده عن حركة الحياة ، وأفقده عافيته ، فنذر إن هو شفى منه أن ينشئ قصيدة يمدح بها المصطفى – ﷺ – ، فعافاه الله عز وجل من مرضه ، فأنشأ البردة عبر فيها عن حبه للنبى الكريم عليه الصلاة والسلام ، وعن تقصيره فى جنب الله وقدم فيها كل آيات الندم والتوبة والاستغفار عما مضى من عمره ، باكياً حزيناً أثناء ذلك كله ، وراجياً من الله عز وجل قبول ندمه وتوبته ، مبتهلاً إليه متضرعاً أن يقيل عثرته وألا يخيب رجاءه .

ومن ذلك قوله عن النبى – ﷺ – :

خدمتُه بمديح أستقيل به ذنوبَ عُمْرٍ مضى فى الشعر والخِدَم
إذ قلدانىَ ما تُخْشَى عواقبُه كأننى بهما هَدْىٌ من النَّعَم

و " شوقى " – رحمه الله تعالى – قضى شطراً كبيراً من حياته هو الآخر لاهياً عابثاً يعاقر الكاس ويتغزل فى الفتيات ، ثم بدا له فى نهاية عمره أن يتوب إلى الله ويقلع عن غيه ، ويخلع نفسه من ربقة الذنوب ومن حياة اللهو والشراب ، فمدح النبى – ﷺ – بقصيدة طويلة على نهج بردة البوصيرى وعلى وزنها ، مقدماً فيها ندمه على عمر مضى فى غفلة شديدة يقول فيها :

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل فى الله يجعلنى فى خير معتصَم
أُلَقِى رجائى إذا عَزَّ المُجِيرُ على مفرِّجِ الكرب فى الدارين والغَمم
إذا خفضتُ جَنَاح الذل أسأله عِزَّ الشفاعة ؛ لم أسألْ سوى أَمَم

وإن تقَّـدَم ذو تقـوى بصالحـــةٍ قدمـت بيـن يديـه عَـبْرَةَ النـــدم
لزمت باب أمـير الأنبيـاء ، ومـن يُمْسِـكْ بمفتـاح بـاب الله يغتنـــم

فالباعث على القصيدتين هو الابتهال إلى الله والتضرع إليه سـبحانه أن يقبل توبة العاصى وندمه على ما بدر منه من تقصير ، وقد استشـفع كلاهمـا بالنبى - ﷺ - فى تحقق الرجاء فقدم كل شاعر قصيدة فى مدح خـير البريـة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

فعاطفة الشاعرين واحدة أو متقاربة إلى حد كبير ، فهى صـادرة عـن شاعرين أحسا مرارة الذنب وذاقا ذل المعصية ، ورغبا إلى الله فى قبول التوبة والندم على ما سلف منهما . وهو شعور صادق ؛ لأنه نابع من نفـس معذبـة وقلب مقروح، فليس فيه مبالغة أو تصنع ؛ لأن المقام مقام مدح النبى - ﷺ - ، والبوح بحب الله ورسوله .

وإذا كانت العاطفة هى مجموعة النوازع الداخلية التى تحيل المعانى إلـى صور حية نحسها ونتأثر بها ، فإن عاطفة شوقى تبدو أكثر تأثيراً فى القـارئ من عاطفة البوصيرى ؛ لأن نص شوقى مليئ بالشحنات العاطفية التـى تـهز القارئ والسامع ، فى قوة وتدفق شديدين .

والعاطفة لدى " شوقى " تقوم على دعائم إسلامية وعربية ، حيـث يعـد " شوقى " شاعر العرب والمسلمين ، ومن هنا كان اتجاهه إلـى مـدح النبـى - ﷺ - ، حيث إن هذا النبى الكريم هو رمز هذا الدين ، وهو عربى ، شـوف العرب بالانتماء إليه وإلى الكتاب المعجز الذى أنزل عليه ، ولغته يتحدث بـها ويتخاطب عدة ملايين من العرب والمسلمين ، وما دام العرب هم مصدر هـذه اللغة ، وعلى رجل منهم نزل وحى السماء ، فله – دون شك – حرمـة تدفـع مثل " شوقى " إلى التغنى بأمجاد الدين وأخلاق الرسول - ﷺ - ، وهى معـان

لها من الأثر فى نفس الشاعر ما ليس لسواها من آثار الماضى ؛ ولذا لم تكـــن إشادة شوقى بالنبى ودعوته وأصحابه ومعجزاته لهدف سياسى ، وإنمـــا كـــان الهدف الإيمانى أقوى من كل هدف .

وأمـــا الخيـــال : فالبردة تفوق النهج فيه تصويراً وجمـــــالاً ، ذلـــك أن " البوصيرى " خلع على قصيدته من روح الدين وبث فيها من إلهاماته الصوفية وفيوضاته الروحانية ما صبغها بصبغة روحانية خالصـــة ، فكأنـــها تأوهـــات صوفى معذب بالحب والعشق الإلهى .

أما نهج البردة فقد أعمل فيها " شوقى " الصنعة والتكلف اللفظى والتـــأنق فى الأسلوب فأفسد بهذا الشكل الزخرفى كثيراً مـــن الصـــور ، التـــى جعلـــت القارئ يعجب بجمالها وتأنقها وإبداعها أكثر من إعجابه بما تنطوى عليه مـــن محتوى فكرى ومضمون أخلاقى .

على أننى أكون مجافياً للحقيقة إذا قلت إن الخيال عند صاحب الـــبردة " البوصيرى " قوى محلق فى كل قصيدته وأنه يتفوق على " شوقى " فـــى كـــل صوره ، بل قد يكون تأثر الأول بالأسلوب المنطقى وتأثر شعره بالفلسفة قد حد من الخيال فى بعض الأحيان ، أو فى كثير من الأحيان ، غير أن الذى حقق له التميز فى مواطن كثيرة حسن تعبيره وعاطفته المتدفقة بالإيمان والقوة ، وهـــى — لاشك — عاطفة صادقة لا مجال للارتياب فيها أو التقليل من شأنها ؛ إذ هـــى عاطفة إنسان تائب إلى الله تعالى ، نادم على تفريطه فى حق الله عز وجـــل ، وفى الوقت نفسه هو إنسان معجب بشخص الرسول - ﷺ - وبدينه وصحبـــه الكرام وبكتابه الذى تنزل عليه فيه هدى ورحمة ، فكان هذا الإيمـــان وذلـــك الإعجاب هما سبب بقاء النص وخلوده وإعجاب القارئ والمستمع به فى كـــل عصر .

ومن الحق القول بأن " شوقى " قد بلغ فى الخيال أعلى درجة وأتى بأرق الصور وأجمل التشبيهات حتى صارت قصيدته لؤلؤة فى جيد حسناء أو فرقداً فى أفق السماء .

وانظر إلى قوله :

وصاحب الحوض يومَ الرسْلُ سائلةُ متى الورودُ؟وجبريل الأمين ظَمِى

فقد استخدم " شوقى " الكناية استخداماً حسناً جميلاً حيث كنَّى عن النبى - ﷺ - بقوله : " وصاحب الحوض " ففى الوقت الذى يقف فيه الرسل والأنبياء فى انتظار الإذن بورود الماء وجبريل عليه السلام أمين وحى السماء شديد الظمأ ، يكون محمد - ﷺ - هو صاحب هذا الحوض ، فقد أضفت الكناية على البيت معنى فى منتهى القوة والجمال .

وفى التعبير بالاستفهام فى وقوله :

يا جاهلين على الهادى ودعوته هل تجهلون مكان الصادق العلَمِ ؟

إنكار عليهم وتسفيه لهم على جهلهم وحمقهم بانحرافهم عن الصواب وعدم تصديقهم بدعوة النبى - ﷺ - ، رغم أنهم أكثر الناس دراية ومعرفة بصدقه ومكانته فى قومه .

وفى مطلع قصيدة " شوقى " براعة استهلال حيث يقول :

ريمٌ على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

وفيه طباق بين " أحل " و " الحرم " يزيد المعنى وضوحاً ، فالضد يظهر حسنه الضد .

ولا يخفى ما فى قوله :

" الحاملات لواء الحسن مختلفاً " من كناية ، حيث عبر عن منتهى الحسن بحمل لوائه .

وفى قوله واصفاً محبوبته أو معشوقته (الرمز) :

مَن أنبت الغصن من صمصامةٍ ذكـــر وأخرج الرِّيم مـــــن ضِرغامـــة قـــرم

يتعجب الشاعر متسائلاً : كيف يولد لمثل هذا الرجل الشبيه بالسيف فـــى مضائه وحدته مثل هذه الفتاة التى تشبه الغصن فى لدونته وتثنيـــــه وجمالـــه ، وكيف يكون لمن يشبه الأسد فى قوته وسطوته وبأسه مثل هذه الفتاة التى تشـــبه الغزال فى رقته ودلاله ، وضعفه . فقد جاءت الاســـتعارة بالمعـــانى الرائقـــة وجمعت بين المتناقضين فى أسلوب طريف ، وكذا فقد أكد الاستفهام فى البيـــت معنى التعجب ، وقد ساعد ذلك كله فى رسم صـــــورة كليـــة كـــون التعجـــب والاستفهام والاستعارة أجزاءها ، ونسجوا خيوطها .

وفى قول شوقى واصفاً النفس :

ركضتها فى مريع المعصيـــات ومـــا أخذت من حميـــــة الطاعـــات للتخـــم

استعان الشاعر بالاستعارة المكنية فى تصوير نفسه المنطلقة والمسترسلة فى غيها ؛ حيث شبه النفس السائمة تشبيهاً مضمراً فى النفس بـــــالجواد النـــافر الذى ركضه الفارس ليعدو ، فمضى منطلقاً كالريح العاصف ، أو شـــبه نفســـه الغاوية بالبهيم الذى يستطيب المرعى ويسترسل فيه لا يصده عنه صادٌ ، وفيـــه تشبيه ضمنى لمن يتعفف عن مقارفة المعاصى بمن يمسك نفسه عن تناول مـــا يهيضه من ألوان الطعام .

لاشك فى أن أمير الشعراء " أحمد شوقى " شاعر موهوب حقق فى نـــهج البردة كل معانى الشاعرية ، حيث عبر عن عاطفته الدينية وإحساســـاته التـــى تفيض بالحب والوله والعشق للنبى ودعوته مستخدماً فى ذلك كل وسائل التعبير التى تنقل تجربته فى صدق إلى القارئ ، فجاءت ألفاظه منتقاة موحية تنفذ فـــى يسر إلى عواطف قارئه وسامعه على السواء فتثير عاطفة مشابهة عند المتلقى .

وقد اختار شوقى من الألفاظ والأساليب أحفلها بالمعانى وأقدرهـــا علـــى تصوير المشاعر الإنسانية التى ينفذ منها الشاعر إلى أعماق النفوس البشـــــرية وينقل إليها تجاربه ، ومن ذلك قوله :

لا تعذلـــوه إذا طـــاف الذهـــول بـــه مات الحبيب فَضلَّ الصب عـــن رغـــم

فهو يصور ذهول " عمر بن الخطاب " رضى الله عنه حين علـــم بنبـــأ وفاة الرسول – ﷺ – ؛ لأنها لحظة حرجة ، أو هى من ألمع ساعات الحـــرج فى تاريخ المسلمين ، ويرى أن الموقف لا يلام فيه أحد ؛ إذ تفقد فيـــه العقـــول اتزانها ، ويذهل كل ذى عقل عن عقله ، ويخرج الحليم أو الحكيم عـــن حلمـــه وحكمته ؛ لأن حب النبى والارتباط به شديدان ، ولا تحتمل قلوب تمكن منـــها هذا الحب وملك عليها كل أرجائها لحظة الفراق .

وتلعب الموسيقى وجرس الألفاظ دوراً مهماً فى قصيدتى (البوصـــيرى وشوقى) ؛ فشوقى : اختار ألفاظاً ذات وقع خاص ، وتتآلف هذه الألفاظ فـــى صورة صوتية معينة تبعث فى العبارة والفكرة روحاً تنفذ إلى النفس من أقـــرب طريق .

وهذه الموسيقى الداخلية إما أن تكون واضحة يسهل إدراكها منذ البداية ، وهى التى يكون مصدرها الجناس والطبـــاق والســـجع وغيرهـــا مـــن ألـــوان الزخارف اللفظية .

ومن ذلك : الجناس ، وهو يبدو بصورة شـــائعة فـــى القصيـــدة كقـــول شوقى :

يفنى الزمان ويبقى مـــن إســـاءتها جرح بـــآدم يبكـــى منـــه فـــى الأدم

أو قوله :

الله قســـم بيـــن النـــاس رزقـــهم وأنت خـــيرت فـــى الأرزاق والقســـم

أو الطباق مثل قوله :

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبـــداً أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنـــم

ومن حسن التعليل قوله :

ذُكِرْتَ باليتم فـــى القــرآن تكرمـــة وقيمة اللؤلـــؤ المكنـــون فـــى اليُتَـــم

وقد تكون الموسيقى خفية لا تدرك بسهولة ويسر ، ولكنها تشيع فى جـــو النص وتستنبط من روحه ، ويكون مصدرها حسن اختيار الألفاظ والـتراكيب ، فتكون بمثابة الموسيقى المحلقة فى النص أو التـــى ترافـــق الألفـــاظ وتوافـــق المعانى ، فتهيئ وجدان السامع وعواطفه لتقبُّل التجربة والتأثر بـــــها ، وهـــذه الموسيقى تنتج عن اكتمال العناصر الفنية للشاعر ، ومن ذلك قول شوقى :

إن جل ذنبى عن الغفران لـــى أمـــل فى الله يجعلنى فـــى خـــير معتصَـــم

أُلْقِى رجائى إذا عَزَّ المُجِـــيرُ علـــى مفرِّجِ الكرب فـــى الداريـــن والغَمـــم

إذا خفضـــتُ جَنـــاح الـــذل أســـأله عِزَّ الشفاعة ؛ لم أسألْ ســـوى أَمَـــم

وإن تقَـــدَم ذو تقـــوى بصالحـــــةٍ قدمـــت بيـــن يديـــه عَـــبْرَةَ النـــــدم

لزمت باب أمـــير الأنبيـــاء ، ومـــن يُمْسِـــكْ بمفتـــاح بـــاب الله يغتنـــــم

فحين تقرأ هذه الأبيات تحس بوقعها الحزين فى نفسك وقد لعبت الألفـــاظ دوراً مباشراً فى ذلك . كل ذلك إضافة إلى الموسيقى الخارجية للنـــص وهـــى قائمة على تفعيلات بحر البسيط الذى تكثر فيه الأحرف الساكنة التى ترتاح إليها النفس وينتج عنها إطالة المقاطع ومد الكلمات ، وفى ذلك راحة للنفس وهـــدوء فى الأداء ورقة فى المعالجة ؛ إذ المقام مقام مدح للنبى - ﷺ - وهو يســـتدعى التذلل والرجاء والخضوع لله والتوسل إليه بكل طاعة والتقرب إليـــــه بـــالعمل

الخالص ، فارتفاع النبرة والصوت لا يناسب مقام التذلل والخضوع ، ومن هنا كان بحر البسيط بتفعيلتيه (مستفعلن فاعلن) أنسب البحور لهذا الغرض .

وأما " البوصيرى " فقد اتخذ إلى جانب لغته الهامسة وروحه العالية ونبضه الإيمانى المنتظم ، اتخذ من موسيقى الأبيات الخارجية التى جاءت على وزن البسيط التام كذلك ، ومن جرس الألفاظ والدقة الشديدة فى اختيار كلماته وجمله ، وكذا جمال صوره وتشبيهاته ، كل ذلك جعله مادة ثرية لموسيقاه ، التى تؤثر بدورها فى عاطفة الشاعر والمتلقى وترسم لوحة شعرية نابضة بالحياة وناطقة بمراسم الجمال فيها .

وأخيراً :

فما زالت بردة المديح للبوصيرى تحظى برضى القراء وإقبالهم عليها بشكل يدعو إلى العجب ، فرغم مرور الأعوام المتتالية والقرون العديدة عليها إلا أنها ما زالت تتلى فى المجالس وتقرأ فى المحافل وكأنها ورد من الأوراد التى يتقرب بها إلى الله عز وجل ، فلم تمت البردة بموت منشئها ولا تزال الصلة بينها وبين القارئ كل يوم فى ازدياد ، ويكفيك لكى تدرك مدى شيوعها وانتشارها على ألسنة الناس أن تزور مسجدى السيدة زينب والحسين بن على رضى الله عنهم لترى هذه الحشود المجتمعة والحلقات المستديرة والملتفة حول البردة ينشدونها ويرتلون أبياتها فى تنغيم جميل وأداء حسن رائع يدل على حب وعشق لمعانيها وألفاظها ، بل إن بعض الصوفية يقرأونها فى اليوم مرة أو مرتين – وتلحظ ذلك إذا زرت مسجد الإمام البوصيرى بالإسكندرية – على أنها ورد من الأوراد .

ويفسر أحد الأدباء سر هذا الإقبال الشديد على البردة البوصيرية ، والتصاقها بوجدانات الجماهير ، نظراً لأنها نظمت فى عصر صوفى بطبعه ،

أو كان الأكثر تصوفاً فى العصور الإسلامية منذ مجيئ الرسالة ، وكذلك لأن " البوصيرى " كان ينتمى صوفياً إلى الطريقة الشاذلية المنتشرة فى البقاع المصرية منذ القرن السابع الهجرى ، ونظراً – كذلك – لما أحاطها بها الصوفية من هالات ، فقد ادعوا أنها تجلب البركة ، وأنها مطية إلى الشفاعة ، ووسيلة من وسائل التقرب إلى الله " (١) .

وقد أتيح لأمير الشعراء " أحمد شوقى " أن ينشئ بردته على نهج بودة " البوصيرى " ويأتى فيها بالمعانى نفسها وربما زاد عليها ، أو أتى بما لم يأت به صاحبه ، وقد صاغها " شوقى " فى قالب فنى جميل ، وبلغ من حب الناس لها وإعجاب الجماهير بفنها وصياغتها أن قام بعض الأدباء بشرحها وبيان ما فيها من معان وقيم أدبية وفنية فضلاً عن القيم الأخلاقية ، ومن هؤلاء : الشيخ " سليم البشرى " رحمه الله تعالى (٢) وقدم لهذا الشرح الأديب الكبير : محمد المويلحى صاحب (حديث عيسى بن هشام) .

ورغم هذه الحفاوة التى قوبلت بها قصيدة " شوقى " فإن تأثيرها كان مقصوراً – فى الغالب – على الطبقة المثقفة والمتذوقة للشعر الرصين ، وهى طبقة لم تكن قريبة من حياة عامة الشعب واهتماماتها ونوازعها ، وإذا كان صوت " أم كلثوم " قد دوى إلى آفاق بعيدة وبلغ آماداً واسعة من العالم متغنياً بنهج البردة فنفذ بها إلى القلوب ورددها الملايين من الأفراد فى أنحاء الدنيا كلها وجعل البردة على كل لسان ، رغم ذلك كله فإن نهج البردة لم يتح لها

---

(١) البوصيرى المادح الأعظم للرسول . عبد العال الحمامصى ص ٤١ .

(٢) هو سليم بن أبى فراج بن سليم بن أبى فراج البشرى . شيخ الجامع الأزهر (١٢٨٤ – ١٣٣٥هـ = ١٨٦٧ – ١٩١٧م) من فقهاء المالكية ، ولد فى محلة بشر (من أعمال شبراخيت بمصر) وتولى نقابة المالكية ثم مشيخة الأزهر مرتين . راجع تقديم محمد المويلحى لشرح نهج البردة هامش ص ٣٥ مكتبة الآداب بمصر ١٩٩٩م .

من الذيوع والانتشار ما أتيح لبردة البوصيرى ، ورغم ما قد يقال من أن قصيدة " شوقى " جاءت فى كثير من جوانبها أكثر تفوقاً فى الشاعرية وفى الأسلوب من قصيدة " البوصيرى " إلا أن ذلك لا يكفل لها ما أتيح للبردة ، " فالبردة قد أخذت حظها من الإنشاد والرواية بما يجعلها أكثر القصائد النبوية جرياً على الألسنة ، واستشهاداً فى كتب الأدب والتاريخ .(١)

ولكن يكفى " شوقى " فضلاً ما أثاره من روح دينية فى نفوس الشباب والشيوخ ، وعزة قومية نحن فى أمس الحاجة إليهما فى عصرنا وخصوصاً فى تلك الأيام التى كثرت فيها التحديات لديننا وقوميتنا ، بل منذ أنشد " شوقى " قصيدته هذه وحتى وقتنا الراهن .

تأثر شوقى بالبوصيرى :

لقد تأثر شوقى بالبوصيرى إلى حد كبير ، فاحتذى حذوه ، وتشابه معه فى كثير من الأفكار والمعانى ، فأفاد من بردته واستلهم روحها ، وطبعها بطابع نفسه وخلع عليها من ثقافته وفكره ما كتب لها الذيوع والانتشار ، وجاءت عاطفة الشاعرين متشابهة أو متقاربة ، وإن اختلف الأسلوب ، فبينما ينزع البوصيرى إلى السهولة والوضوح يسلك شوقى فى انتقاء ألفاظه وعباراته مسلكاً وعراً ، ويحرص على لغته الجزلة الرصينة حرصاً شديداً .

وإذا كان البوصيرى قد جرى على سنة القدماء فى بدء القصائد بذكر الديار والوقوف على الأطلال فنجده يقول فى مطلعه :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ويقول فى موطن آخر من قصيدته :

لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم

---

(١) البوصيرى المادح الأعظم للرسول ، عبد العال الحمامصى ص ٤٣ .

فتلاحظ ذكره للديار والآثار والأطلال ، ووقوفه علـــى المعـــالم البـــائدة والآثار الزائلة .

ولكن حين نقرأ نهج البردة لشوقى نراه وإن تأثر بالبوصيرى خاصـــة ، وبالقدماء عامة فى بدء قصيدته بالتشبيب ، إلا أنه لم يقف على الديار والآثـــار أو يبكى على الأطلال ، بل اقتصر على التشبيب وأتى بمعان جديدة ، لم يقـــع عليها القدماء ، وإن سار على طريقتهم كما قال " محمد المويلحى " : " لقد وفق بحمد الله شاعرنا هذا " أحمد شوقى " إلى سلوك هذا السبيل فى شـــعره ، فلـــم يقتصر على قرض القريض فى ما تجرى عليه الأحوال فى عصرنا الحاضر ، بل سار على نهج المتقدمين وانتحى مناحيهم فى فنون الشعر ، واقتدى بهم فـــى هذه القصيدة " (١) .

وإذا كان شوقى قد سار على نهج الأقدمين إلا أنه تناول أفكـــارهم وزاد عليها ، فاختصر بعض معانى البوصيرى وأفكاره وفصل فى مواضـــع أجمـــل فيها صاحب البردة ، وقد عالج كلاهما نواحى أدبية وخلقية بأســـلوب رائـــع ، ويلاحظ على أسلوب البوصيرى أن ألفاظه قوالب لمعانيه بحيث تظـــهر قـــوة الترابط بين الألفاظ ومعانيها . وهى ميزة تبدو أوضح فى البردة وإن لم تخـــل منها أبيات نهج البردة .

ويمتاز البوصيرى بأنه لا تكلف عنده فكلامه يأتى عفواً لا تأنق فيـــه ولا تصنع ، وإن وجدنا فى بردته ألفاظاً فخمة وأساليب رصينة قوية .

وفى أسلوب شوقى كثير من الصناعة ، إذ هو من محترفى هذا المذهـــب (التجويد فى الشعر) فالإبداع عنده أثر من آثار الصنعة الشعرية . ولذا تكـــثر عنده التشبيهات الجيدة والاستعارات والصور المبتكرة التى تميزه عن غيره من الشعراء .

---

(١) مقدمة نهج البردة لمحمد المويلحى ص ٣٤ .

وفى النهاية :

فإن الشاعرين " البوصيرى وشوقى " قد أخلصا وصدقا فى مدح النبى – ﷺ – ، ومن هنا كتب لبردتيهما من الذيوع وبُعْد الصيت ما لم يكتب لغيرهما من مدائح الشعراء ، رغم أن هناك كثيراً من التجارب التى يحاكى بها قائلوها بردة البوصيرى ويترسموا طريقة شوقى مثل البارودى وأحمد محفوظ ، ومحمد خليل الخطيب ، ومحمد حامد الأبنودى ، والضابط : محمد توفيق على وأخيراً : الدكتور " أحمد عمر هاشم " أستاذ الحديث بجامعة الأزهر .

أسأل الله – عز وجل – أن يكتب لهذه الدراسة القبول ، وما توفيقى إلا بالله .

المصادر والمراجع

١- الأسس الفنية للإبداع الأدبى د. عبد العزيز شرف ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ سنة ١٩٩٣م .

٢- أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب ط٤ مكتبة النهضة المصرية د.ت .

٣- البوصيرى المادح الأعظم للرسول ، عبد العال الحمامصى ، دار المعارف بمصر سلسلة كتابك ١٩٧٨م .

٤- دراسات فى علم النفس الأدبى ، حامد عبد القادر ، المطبعة النموذجية سنة ١٩٤٩م .

٥- ديوان ابن الفارض – مكتبة زهران بمصر د . ت .

٦- ديوان البوصيرى – تحقيق محمد سيد كيلانى ط٢ ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٩٧٣م .

٧- سرح العيون لابن نباته ، دار الكتب المصرية .

٨- شرح نهج البردة للشيخ سليم البشرى مكتبة الآداب بمصر ١٩٩٩م .

٩- الشوقيات . لأحمد شوقى ط١ ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ١٩٧٩م.

١٠- الصورة الأدبية د. مصطفى ناصف ، مكتبة مصر ، د.ت .

١١- فى الأدب والنقد د. محمد مندور ط٣ ، القاهرة ١٩٥٦م .

١٢- قطوف . عبد العزيز البشرى ، دار الكاتب المصرى ، الجزء الثانى سنة ١٩٤٧م .

١٣- محاضرات فى أدب العصر الجاهلى – د. عبد الحميد المسلوت – القاهرة د. ت .

١٤- المدائح النبوية فى الأدب العربى د. زكى مبارك طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة : ذاكرة الكتابة عدد ٤٨ لسنة ٢٠٠٣م .

١٥- معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب ، د. مجدى وهبة وكامل المهندس ط٢ بيروت مكتبة لبنان ١٩٨٤م.

١٦- المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، طبعة وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٩٧م.

١٧- المنتخب من أدب العرب ج٢ طه حسين وآخرون ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠١م .

١٨- النقد العربى الحديث ومذاهبه د. محمد عبد المنعم خفاجى د.ت .

الفهـــرس

الموضـــــــوع	الصفحة
(١) مقدمة نقدية لابد منها .	٦٩٥
(٢) موازنات نقديـــــة .	٧٠٣
١- بين المتنبى وعبد الحميد الكاتب فى الشـــــــكوى .	٧٠٣
٢- بين ابراهيم ناجى وعلى محمود طه فى وصف الفجر .	٧٠٧
٣- بين شوقى والكميت .	٧١٠
(٣) عن البوصيرى وشوقى .	٧١٤
١- البوصيرى .	٧١٤
٢- أحمد شوقى ونهج البردة .	٧١٨
نص القصيدتين :	٧٢٠
أولاً : بردة البوصيـــرى .	٧٢٠
ثانياً : نهج البردة لشوقى .	٧٣٢
(٤) معالم النص الأدبى بين الشاعرين .	٧٤٨
أولاً : الأفكار .	٧٤٨
موازنة بين الشاعرين .	٧٥٤
ثانياً : الأسلوب .	٧٦٣
ثالثاً : العاطفة والخيال والموسيقى .	٧٦٧
وأخيراً .	٧٧٤
تأثر شوقى بالبوصيرى .	٧٧٦
المصادر والمراجع .	٧٧٩
الفهرس .	٧٨١